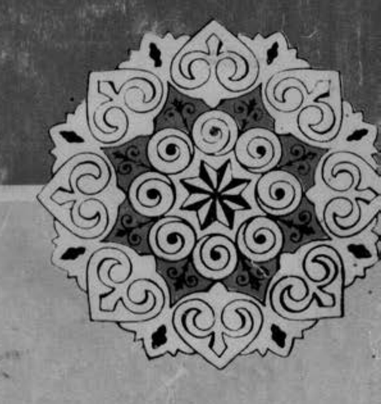
جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

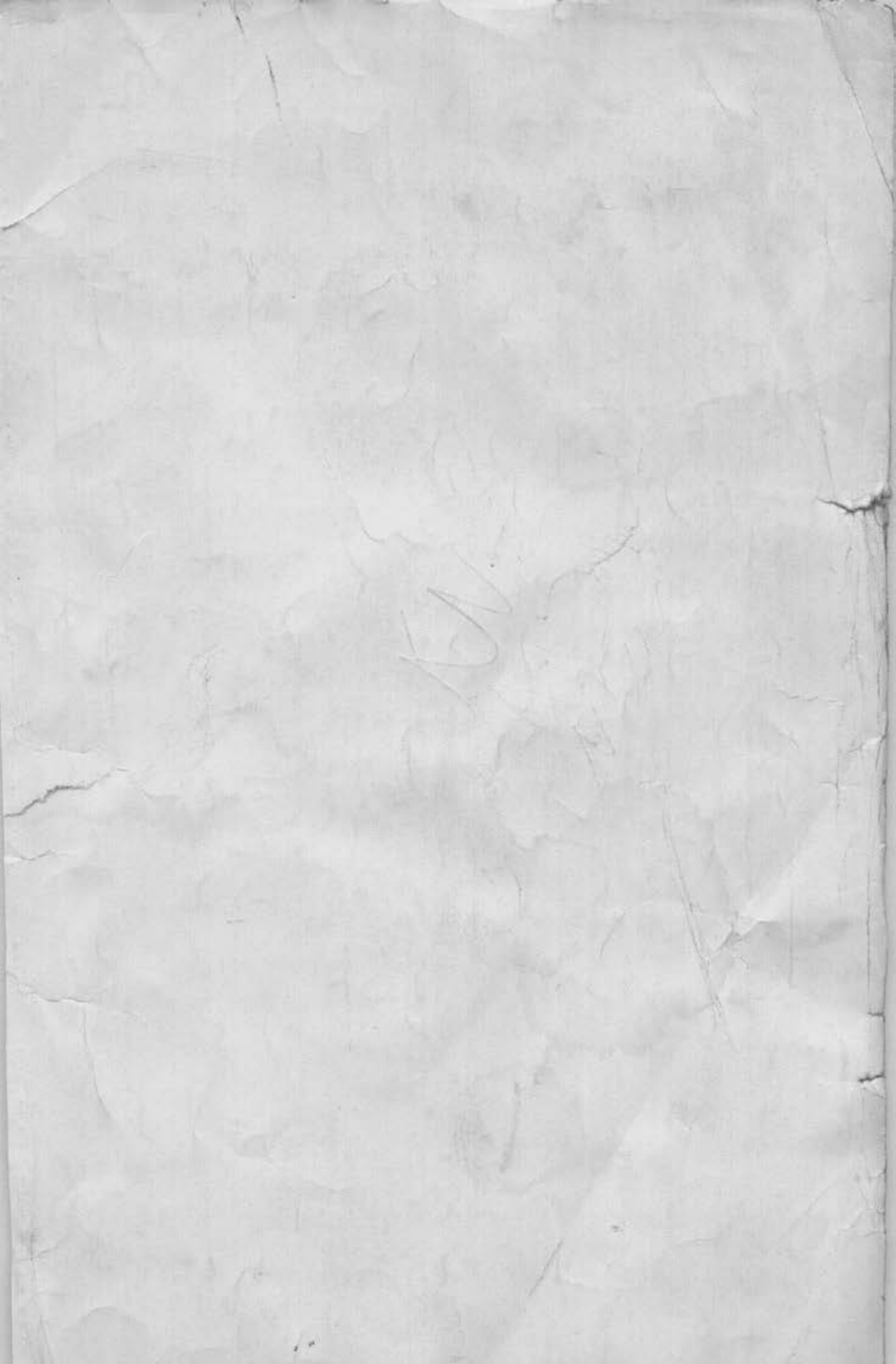
دراسات إسلامية
سلسلة تصدر
فى منتصف كل شهر عربى
العدد (١٦٦)



لمحات من حياة نبى الرحمة صلى الله عليه وسلم

د/ توحيد الزهيرى

القاهرة
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م



جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

دراسات إسلامية

سلسلة تصدر
فى منتصف كل شهر عربى

لمحات من حياة نبى الرحمة صلى الله عليه وسلم

د/ توحيد الزهيرى

العدد (١٦٦)

القاهرة

ربيع الآخر ١٤٣٠هـ - أبريل ٢٠٠٩م

يشرف على إصدارها

أ.د./ محمود حمدى زقزوق

وزير الأوقاف

رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

أ.د/ محمد الشحات الجندى

الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

*** ما ينشر فى هذه السلسلة يُعبر عن رأى كاتبه ولا يُعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.**

الاشتراكات: يخاطب بشأنها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
٩ شارع النباتات ـ جاردن سيتى
قيمة الاشتراكاالسنوى (داخل مصر) ثلاثون جنيهاً (١٢ عدداً)

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى السلسلة

يضطلع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمهام جسام، من بينها الإسهام فى تثقيف العقل الإنسانى بصحيح الإسلام. الدين الذى ارتضاه الله نوراً وعدلاً، يشع فى جنبات النفس البشرية، فيضيئها بنور الإيمان وعدل الرحمن، به يستنقذ الإنسان نفسه من مجاهل الضلال، ويعتق ذاته من متاهات الطغيان، فتمتلئ تلك النفس الحائرة الأمارة بالسوء، إشراقاً وحباً لله خالق الوجود، وللناس رفاق الدرب بالمودة والرحمة والسكينة، وتتحول تلك النفس الضالة إلى نفس نورانية، تقدم عطاءها بلا حدود إلى من حولها حباً وكرامة تعبيراً عن تغلغل نور الإيمان إلى العقول، لتسلمها إلى طريق الرشاد، وإلى الأفئدة والقلوب لتعمرها بالهداية والرشاد وهو غاية مجئ خير البرية، وتنزيل كتاب الله، بقوله تعالى:﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾[1]وقوله جل شأنه ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ

(١) المائدة: ١٥.



إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[1].

على هذا الدرب الإيمانى تتمحور الشخصية المسلمة المتبصرة برسالة الإسلام، وهى رسالة طمأنينة وسكينة وأمان، تجسد سلاماً للإنسان فى هذا الكون، وتنطلق به إلى الآفاق الرحبة لخلافة الإنسان فى الوجود من حوله، ليتوجه بها المؤمن نحو ما ينفع نفسه والناس من حوله، فيعطى لحياته قيمة، يتصرف بها الإنسان على بصيرة وهدى ورشاد.

على هدى هذا الفهم التنويرى الهادف إلى تزويد الإنسان بالعلم النافع والقريحة المتوقدة، والعقلية الناهضة تنبعث الحاجة إلى خطاب وسطى مستنير، يقدس الوحى، ويحترم الفكر والعقل، يلتزم به هذا المجلس فى إصداراته جميعاً، وهو الشأن فى السلسلة موضع هذا التقديم، سلسلة الدراسات الإسلامية، فيما تعرض له من موضوعات تؤصل الحقائق الإسلامية، وتستلهم المقومات الربانية لهذا الدين، دين رسل الله أجمعين، الذى وعى ملكات الإنسان فحمله بالأمانة التى عجز عن حملها السماوات والأرض والجبال، وأشفقن منها،

---

(١) إبراهيم: ١.

وما أعظمها من أمانة، وما أقدسها من مهمة وغاية، فكان مراد الله فى الإنسان أن تكون منهاج حياته، يوجهها الوجهة الصحيحة، تقوده إلى أن يصلح دينه بدنياه، وأن يجرى حياته وفق النواميس الإلهية، ولا يتأتى قيامه بهذه الأمانة، إلا بطلب العلم النافع والتربية الإيمانية الرشيدة التى تكون زاد المسلم على طريق الاستقامة، ومن ثم حق للقرآن أن يوجه إلى ذلك النهج رسوله ومصطفاه بقوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ (1). ذلك العلم الذى هو آله الفكر البناء، والمرتكز الحضارى الخلاق، فكان علم هداية إلى الله رب العالمين، كما نعت به القرآن الرسول ﷺ بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾(2).

هذا هو المأمول من إصدار هذه السلسلة، أن تعتصم بالهدى الإلهى وأن تلتزم بالفكر الإيمانى وسط متاهات الحيرة والضلال، وإشاعة فكر الإلحاد والتفلت من ربقة الأديان نسوقها تذكيراً وحرصاً على الحفاظ على المنظومة الإيمانية التى أبدعها القرآن، لتكون

---

(1) طه: ١١٤.

(2) الشورى: ٥٢ـ٥٣.



حصناً يحمى البشرية من مستقبل غامض يتهددها. فقد انطلقت على غير هدى للترويج للمادية والافتتان بالعقل الإنسانى إلى أبعد مدى، وما درى الإنسان أنه يلهث بهذا المسلك المعوج نحو حتفه، يستعجل به نهايته فى إعلاء قيم الحق والعدالة والتعاون على استنقاذ الإنسان من نفسه وسط طوفان الجاهلية الجديدة والوثنية المقيتة، وهو ما يجعلنا ندعو مخلصين إلى نشر فكر الإسلام دين الأنبياء جميعاً على البشر، عسى الله أن يهدى به القلوب والعقول إلى ما فيه خير البشرية قاطبة، فيومئذ يفرح المؤمنون بالنصر المؤزر والمبين.

الأمين العام

د . محمد الشحات الجندى

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــــد :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [1]

"العالمين" هم جميع الناس

انظر إلى قوله ﷻ على لسان النبى لوط ﷺ مخاطباً قومه منكراً عليهم خطيئة إتيان الرجال: **﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾**[2] لتعلم أن لفظ **"العالمين"** فى القرآن الكريم يشير إلى مجموع الناس .

وبهذا البيان الواضح الذى استعمل الله ﷻ فيه صيغة الحصر (النفى والاستثناء) بقول **﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾** يؤكد أن الباعث الوحيد على إرسال النبى محمد ﷺ رسولاً من عند الله للناس هو رحمتهم، ومن ثم فإن رحمة الله المتمثلة فى الرسالة المحمدية تشمل جميع البشر ؛المؤمنين الذين صدَّقُوا أن القرآن كلام الله والكافرين الذين كذبوا بذلك على حد سواء . إنها رحمة عامة تفيض على كل الناس الصالحين والطالحين ، الطائعين والعصاة ، المكلفين وغير المكلفين؛ مثل الشمس التى تدفئ وتنير لكل المخلوقات طريقها فى هذه الحياة الدنيا .

(١) الأنبياء : ١٠٧ .

(٢) الشعراء : ١٦٥ ـ ١٦٦ .



ماذا يستخلص النبى ﷺ من قوله الله ﷻ له : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ ؟ .

يستخلص أنه ﷺ رحمة أهداها الله ﷻ إلى جميع الناس ، ويعلم أن واجبه ﷺ أن يرحم كل البشر . ولقد التزم ﷺ بطاعة هذا الأمر الإلهى طوال حياته وفى كل مراحل دعوته إلى الله ، فى زمن الاستضعاف بمكة حيث عانى ﷺ ـ والقلة المؤمنة معه ـ من اضطهاد الملأ من قريش مما أجبر المسلمين على الهجرة إلى الحبشة، ثم إلى يثرب التى صارت بعد ذلك تسمى المدينة المنورة، وفى زمن التمكين ـ أيضاً ـ حين صار رسول الله ﷺ هو السيد المطاع الذى تخضع له كل القبائل فى شتى أنحاء الجزيرة العربية .

وصف الله ﷻ خلق نبيه ﷺ بقوله : **﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾**[1] .

و**﴿الخلق﴾** هو سلوك الإنسان فى معاملة غيره من البشر ؛ أى مجموعة المبادئ أو القيم التى يرجع إليها الإنسان لضبط تعامله وتحديد ردود أفعاله إزاء الآخرين .

وجوهر "**الخلق الحسن**" هو بذل الخير (النفع) إلى الغير وكف الأذى (الضرر) عنهم، ومن ثم فهو ثمرة الرحمة، أو بكلمات أخرى الخلق الحسن هو الرحمة فى مجال التعامل بين البشر .

"**والعظيم**" هو الجدير بالاحترام وطاعة الآخرين له . واسم الله "**العظيم**" يعنى المستحق للعبادة الجدير بخضوع العباد له . والرجل العظيم

---

(١)القلم : ٤ .

هو الجدير بقيادة غيره المستحق لطاعتهم له . والخلق العظيم هو الخلق الجدير باحترام كل الناس حتى الخصوم والأعداء فصاحب الخلق العظيم هو الإنسان الذى يحظى باحترام كل من يتعامل معه حتى الذين يبغضونه ويناصبونه العداء .

وكان هذا هو شأن محمد ﷺ، فقد سماه قومه حتى قبل نزول الوحى إليه وبعثه رسولاً "**الصادق الأمين**" وظلوا على احترامه وتقدير خلقه رغم عداوتهم له التى بلغت حد محاولة قتله .

وكان ﷺ عند حسن الظن به؛ فعندما أذن الله له بالهجرة بعد أن بلغ اضطهاد الملأ من قومه له ولأتباعه ذروته .. حرص ﷺ على أن يرد الأمانات إلى أهلها؛ فاستبقى ابن عمه الشاب الفتى الفدائى على بن أبى طالب ﷺ وراءه فى مكة ليعيد الأمانات إلى أصحابها ثم يلحق به فى دار الهجرة .

وقوله ﷻ : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ يعنى من المؤكد ـ يا أيها النبى ـ إنك مفطور على سلوك يحظى باحترام كل الناس حتى الذين لا يؤمنون بك نبياً رسولاً، والذين ناصبوك العداء وأعلنوا الحرب عليك وخاضوا ضدك صراعات مريرة حتى الموت؛ حتى هؤلاء يحترمونك ـ فى قرارة أنفسهم ـ ويقدرون صفاتك وسلوكك .

وإذا كان العرب الوثنيون قد احترموا خلق محمد ﷺ رغم بقائهم على الكفر برسالته فإن ذلك يرجع ـ دون أدنى شك ـ إلى أن احتكاكهم المباشر معه فى علاقات إنسانية متعددة الأوجه والأبعاد قد كشف عن خلقه العظيم الذى يوجب له الاحترام والتقدير .



عندما أخبر أبو سفيان ــ وهو سيد قريش وحامل لواء الحرب ضد الإسلام بأن محمداً ﷺ قد تزوج ابنته أم حبيبة، وكانت قد آمنت وهاجرت إلى الحبشة مع المضطهدين من المؤمنين، ثم ترك زوجها الإسلام فتزوجها رسول الله ﷺ فقال أبوها حين علم بذلك الزواج "هو الفحل لا يُجدع أنفه" يقصد هو الرجل العظيم الذى لا يُرفض نكاحه، بل يحب كل أب أن يزوجه ابنته .

وعندما تقدم النبى ﷺ ليفتح مكة وخشى أبو سفيان من شدة بطش المسلمين وانتقامهم من صناديد قريش الذين أفحشوا فى عداوتهم وحربهم للمؤمنين فأسرع يستغيث بالنبى ﷺ ويقول له "أنشدك الله فى قومك ، فأنت أبر الناس ، وأوصل الناس وأرحم الناس" .

هذه شهادة قديمة من رجل كان عدوًا لمحمد ﷺ ، قاد ضده الحروب وتمنى فى مرات عديدة لو تمكن من قتله والخلاص منه إلى الأبد !!

وفى المقابل نجد شهادة أخرى معاصرة لنا من عالم أمريكى كبير متخصص فى دراسة الكون (الفلك) و الرياضيات ولكنه يهوى التاريخ ؛ أجرى بحثاً مستفيضاً متعمقاً فى أعظم الشخصيات الإنسانية التى أثرت فى مجرى التاريخ البشرى، فأفضى به البحث العلمى الموضوعى إلى الإقرار بأن النبى محمد ﷺ هو أعظم إنسان ظهر فى التاريخ البشرى وأنه يأتى على رأس قائمة تضم مائة من الشخصيات الإنسانية التى صنعت التاريخ البشرى[١] .

---

(١) كتاب "العظماء مائة وأعظمهم محمد ﷺ" ــ تأليف ميشيل هارت وترجمة / أنيس منصور ــ دار الشروق ــ القاهرة .

إن دراسة السيرة النبوية بعقل موضوعى محايد نزيه غير مصاب بالتحيزات المسبقة ولا المفاهيم المغلوطة أو الخاطئة لابد أن يفضى إلى هذه الحقيقة الإنسانية الناصعة القاطعة التى اتفق عليها كفار قريش مع العلماء الراسخين من أهل الحضارة الغربية المعاصرة .

سُئلت السيدة عائشة ــ رضى الله عنها ــ زوج النبى ﷺ عن خلق رسول الله ﷺ ؟

فقالت : **"ما كان أحد أحسن خُلقاً من رسول الله ﷺ كان أحسن الناس خلقاً . كان خلقه القرآن . يرضى لرضاه ، ويغضب لغضبه . لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا سخاباً فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح"** .

ثم قالت لمن سألها : اقرأ سورة "المؤمنون" فقرأ :

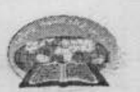
﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾[١] .

فقالت عائشة ــ رضى الله عنها ــ: **هكذا كان خلق رسول الله ﷺ**[٢] .

---

(١) المؤمنون : ١ – ١٠ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ــ الجزء السابع ــ ص١٦، للإمام محمد بن يوسف الصالحى (السيرة الشامية) ــ لجنة إحياء التراث الإسلامى ــ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية



وتقول"صفية بنت حيى بن أخطب ــ رضى الله عنها ــ وهى زوجة أخرى له: **ما رأيت أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ** [1] .

وقد جعل رسول الله ﷺ جوهر عمله تحقيق إتمام الخلق الحسن باعتباره التجسيم المشهود ــ فى عالم العلاقات بين البشر ــ للرحمة التى أودعها الله فى رسالته .

يقول الرسول ﷺ : **[إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق]**[2] ومن دعائه ﷺ لنفسه قوله : **[اللهم كما أحسنت خَلْقِىَ فحسن خُلُقى]**[3] .

كان أنس بن مالك ﷺ هو الغلام الذى ساقته الرحمة الإلهية وهو فى سن الثامنة ليكون خادم رسول الله ﷺ طيلة ما يزيد على عشر سنوات هى ما بقى من عمر النبى ﷺ، على هذه الأرض .

وأتاحت له هذه العِشرة الطويلة اللصيقة الاقتراب الحميم من الحياة الشخصية الخاصة بالنبى ﷺ ومن ثم صار ﷺ بوسعه أن يصف لنا خلق النبى ﷺ كما وجده عن كثب .

ــ مصر . وقد ذكر تخريجه فى الأدب المفرد للبخارى وصحيح مسلم ، وسنن الترمذى والنسائى، وغيرها من مراجع السنة النبوية .

(١) المصدر السابق ص ٢٢ .

(٢) الحديث رقم ٢٣٤٩ فى كتاب صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) .

(٣) رواه الإمام أحمد بن حنبل وابن حبان، انظر سبل الهدى والرشاد، الجزء السابع ص٢٨ .

يقول أنس بن مالك ﷺ :

"خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ، وأنا ابن ثمان سنين فى السفر والحضر، والله ما قال لى أفٍ قط ، ولا لشىء صنعته لِمَ صنعت هذا هكذا ، ولا لشىء لَمْ أصنعه لم تصنع هذا هكذا ؟ ولا لشىء صنعته: أسأتَ صنعته ،أو لبئس ما صنعت" ولا عاب علىَّ شيئاً قط، ولا أمرنى بأمر فتوانيت عنه أو ضيعته فلامنى" .ولا لامنى أحد من أهله إلا قال : دعوه فلو قُدِّرَ (أو قال قُضِيَ) أن يكون كان" .

"وأرسلنى يوما فى حاجة فقلت : أذهب" .فخرجت على صبيان وهم يلعبون فى السوق" فأخذ أنس يلعب ونسى ما أمره به رسول الله ﷺ . يقول أنس : "وإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاى من ورائى فنظرت إليه ، وهو يضحك . فقال : يا أنس اذهب حيث أمرتك، فقلت : أذهب يا رسول الله"(١) .

هذه هى شهادة خادمه التى تبين كيف كان ﷺ يعامل خدمه ومن هم تحت يده .

ووصفه هند بن أبى هالة بقوله: "كان رسول الله ﷺ دمثًا ؛ ليس بالجافى ولا المهين . يبدأ من لقيه بالسلام. لا تغضبه الدنيا وما كان لها .

---

(١) المصدر السابق ص١٨ وقد رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد بن حنبل . انظر على سبيل المثال طرف هذا الحديث تحت رقم ٦٠٣٨ فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى .



فإذا تَعرّض الحق لم يعرف أحداً ولم يقم لغضبه شئ حتى ينتصر ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها"(١) .

قوله "**دمثاً**" يعنى ليناً سهلاً فى معاملته للآخرين متواضعاً يحب الناس ويحبه الناس .

ثم فسر معنى "**الدماثة**" فقال "**ليس بالجافى ولا المهين**" يعنى لا ينفر من الناس ولا يقسو عليهم ولا يحتقرهم .

ولهذه الشهادة قيمة كبيرة ؛ لأن هندًا هذا ﷺ هو ابن السيدة خديجة رضى الله عنها ــ أول نساء النبى ــ من زوجها الأول : أبى هالة مالك بن نباش الذى تزوجته فى الجاهلية قبل زواجها من النبى ﷺ ونحن نعلم النفور والتوتر اللذين يطبعان علاقة الطفل بزوج أمه؛ ومن ثم فعندما يشهد الطفل لزوج أمه بلين الخلق فقد صرنا على يقين من تواضع ورأفة وحنان النبى ﷺ .

كما لو كان "هند بن أبى هالة" ﷺ بشهادته القائمة على تجربته الشخصية يفسر دون أن يدرى قول الله ﷻ :

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (٢) .

والآية توضح الصفات الأساسية التى ينبغى توفرها فى من يقوم بقيادة البشر ويحب أن يلتف الناس حوله محبين له ومؤيدين وطائعين؛ فهذه

---

(١) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ــ الجزء السابع ص ٢١ .

(٢) آل عمران : ١٥٩ .

الصفات : التواضع والرأفة والتودد أو العطف والمواساة هى شروط القيادة الصالحة أو العظمة الحقيقية .

وقد تكفلت السيرة النبوية العطرة ـ كما حملتها لنا شهادات الذين عاشوا حول النبى ﷺ واشتبكوا معه فى علاقات إنسانية متعددة الأوجه والأعماق ـ بتفسير هذه المعانى فى بيان حى مشهود.

يقول عثمان بن عفان ﷺ: **"أما والله قد صحبنا رسول الله ﷺ فى السفر والحضر . كان يعود مرضانا ويشيع جنائزنا ويغدو معنا ويواسينا بالقليل والكثير"**[1] .

ويقول أنس بن مالك ﷺ : **"كانت الأَمةُ من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به فى حاجتها حيث شاءت"**[2] .

ويقول جابر بن عبد الله ﷺ : **"ما سئل النبى عن شىء قط فقال : لا "**[3] .

يعنى أنه ﷺ كان يستحيى أن يرد سائلاً صفر اليدين .

ويروى سهل بن سعد ﷺ قصة تبرهن على تحقق صفة الكرم فيه ﷺ ، فيقول: **"إن امرأة جاءت إلى النبى ﷺ فأهدته بردة ـ وهى شملة منسوجة فيها حاشيتها ـ وقالت : يا رسول الله إنى أكسوك هذه . فأخذها النبى ﷺ محتاجاً إليها فلبسها . فرآها عليه رجل من الصحابة فقال : يا رسول الله ، ما أحسن هذه فاكسينها .**

---

(١) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد، الجزء السابع، ص ٢٠ .
(٢) الحديث رقم ٦٠٧٢ فى كتاب "فتح البارى بشرح صحيح البخارى" .
(٣) الحديث رقم ٦٠٣٤ فى المصدر السابق .



فقال الرسول ﷺ : [نعم] وأعطاها للرجل ـ فلما قام النبى ﷺ لام الرجل أصحابهُ قائلين : ما أحسنت حين رأيت النبى ﷺ أخذها محتاجًا إليها ثم سألته إياها وقد عرفت أنه لا يُسأل شيئاً فيمنعه.

فقال الرجل :رجوت بركتها حين لبسها النبى ﷺ لعلى أكفن فيها"[1] .

ولا يمكننا بالطبع الاستطراد فى ذكر الشهادات التى تُجلى لنا عظمة الخُلُقُ المحمدى ولبيان الأحداث التى تعبر عن رحمته ﷺ بالخلائق كلها لأن ذلك فوق الطاقة الإنسانية؛ ولأننا سنكون مضطرين من أجل تحقيق ذلك إلى كتابة السيرة النبوية كلها بكافة تفاصيلها، وهو عمل هائل من المستحيل إنجازه فى هذا المقام إن جاز إمكان تحقيقه فى يوم ما .

لذلك سنكتفى الآن ـ فى هذا التمهيد ـ بذكر قصة واحدة وحديث نبوى واحد يحمل فى معناه من الدلالات ما يضيئ لنا الطريق لفهم رحمته ﷺ بجميع المخلوقات .

يقص علينا أنس بن مالك ﷺ خادم النبى أنه ﷺ كثيرًا ما كان يزور أمه أم سليم وزوجها أبا طلحة . وكانت أم سليم من النساء المؤمنات الصادقات المتفقهات فى الدين والتى أظهرت فى مواقف عديدة فهمًا وعمقًا فى الإيمان، وهى التى دفعت بابنها أنس ليخدم النبى ﷺ عند قدوم النبى إلى المدينة المنورة مهاجراً من مكة، وكانت تحتفى بزيارة النبى ﷺ لها فى بيتها وتحاول قدر وسعها ـ رغم ما تعانيه من فقر ـ أن تتحفه بما يحب ، وكان النبى ﷺ يجد راحة فى بيتها ، فربما نام فى فراشها عند اشتداد حر

---

(١) الحديث رقم ٦٠٣٦ فى المصدر السابق .

الظهيرة ، وربما أدركته الصلاة هناك فيأمر بالبساط المتواضع الذى يجلس عليه أن يُكنس و يُنفض ثم يقوم ﷺ فيصلى، ويصطف من فى بيت أم سليم خلفه متخذاً من بيت أم سليم وزوجها أبى طلحة مسجداً، وكان ﷺ يحرص كلما زار بيت أم سليم أن يُلقى نظرة على ابنها "أبى عمير" وكان صبياً صغيراً قد أنهى الرضاع وشيكاً وكان مريضاً، ولذلك يحرص النبى ﷺ على تفقد أحواله والسؤال عنه ويذهب إليه ويضاحكه .

وذهب النبى ﷺ إلى بيت أم سليم ذات يوم فرأى الصبى "أبا عمير" حزيناً صامتاً متعباً غير نشيط تلتمع عيناه ببقايا دموع .

فقال النبى ﷺ لأم سليم : **[مالى أرى ابنك خائر النفس ؟ ما شأن أبى عمير حزينًا؟]** .

فقالت أم سليم : ماتت صعوته[1] التى كان يلعب بها .

فالتفت النبى ﷺ إلى الطفل الحزين فى حنان وأمعن فى وجهه النظر وقال له وهو يمسح رأسه : **[أى أبا عُمَيْر مات النغير؟!]** يظهر على وجهه الدهشة مشاركاً الطفل الصغير حزنه الكبير .

ثم قال كمن ينشد **[يا أبا عمير ما فعل النغير؟!]**

[يا أبا عُمَيْر ما فعل النُغَّير؟!] [2] .

وقد لحق أبو عمير بنغيره إذ سرعان ما حضره الموت ..

---

(١) الصَعْو: طائر صغير المنقار أحمر الرأس يشبه فرخ العصفور ويسمى أيضاً النُغيَّر .

(٢) انظر شرح الحديث رقم ٦٢٠٣ ، والحديث رقم ٦١٢٩ فى المصدر السابق .



ها هنا نرى الحاكم المتواضع الذى يزور أهل خادمه ويجلس ويأكل معهم ويطمئن بنفسه على طفل صغير مريض يضاحكه ويشاركه حزنـــه ، ونرى النبى الرسول ﷺ وهو يصلى فى أى مكان تدركه فيه الصلاة ضاربًا المثل الأعلى فى التيسير والبعد عن التشدد .

وبعد فإنها فى الصفحات الآتية لا نملك إلا نستخرج قطرات من بحر رحمة الله التى أهداها إلى خلقه بإرساله النبى محمد ﷺ من قبضة الغيب . إنها مجرد لمحات من حياة نبى الرحمة ﷺ .

كتاب رحمته ﷺ بالنساء

(أ) باب الزوج المحب الرحيم

إذا ألقينا نظرة متأملة على سيرة النبى محمد ﷺ باعتباره زوجاً وأباً لوجدناه المثل الإنساني الأعلى فى المودة والرحمة بأزواجه وأولاده .

تزوج محمد ﷺ وهو فى الخامسة والعشرين من عمره من السيدة خديجة بنت خويلد وكانت سيدة أعمال تاجرة واسعة الثراء ، تستثمر أموالها فى تسيير القوافل التجارية خاصة إلى الشام وتستعمل على ذلك رجال من قومها يجهزون القوافل ويقومون بالبيع والشراء ثم يعودون إليها فتعطيهم أجرهم من الأرباح التى حصلت عليها(١) .

ولقد تعرفت السيدة خديجة ــ رضى الله عنها ــ على "محمد" عندما أشرف على إحدى قوافلها التجارية إلى الشام ، فلمست عن قرب أمانته

---

(١) لعل السيدة خديجة بنت خويلد ــ رضى الله عنها ــ تعد مثلاً ونورًا كاشفًا يبين أن بعض النساء قد استطعن حتى فى ظلمات الجاهلية أن يظفرن بمكانة عالية فى المجتمع بفضل قوة شخصياتهن وثرائهن وشرف عائلاتهن وأن المجتمع العربى ــ حتى قبل الإسلام ــ كان يسمح بظهور المرأة وأن يكون لها دور مؤثر فى إدارة الحياة الاجتماعية . ومن ثم يبدو واضحًا ــ للعقل النزيه ــ زيف الصورة التى تقدمها الرؤية الغربية إذ تدعى أن المرأة قد عانت من ظلم فادح واضطهاد بالغ فى كل المجتمعات على مدى العصور حتى جاء عصر التنوير الأوروبى لينقذ المرأة من أقبية السجون التى حبسها فيها الرجل كما لو كانت علاقة الرجل بالمرأة على مر العصور هى العداوة والصراع بين خصمين لدودين يسعى كل منهما لفرض إرادته على الآخر !!



وصدقه وحياءه وتحققت بنفسها من صدق ما قيل عن خلقه العظيم حيث أطلق عليه اسم "**الصادق الأمين**" وأحست ببركته حيث حقق لها من الأرباح ما لم تظفر به من أية قافلة أخرى قبل ذلك .

كانت ــ كما تقول ــ صديقتها "نفيسة بنت منية" امرأة حازمة جلدة(١) ذات مكانة مرموقة فى قومها تتمتع بشخصية قوية وحكمة تمكنها من حسن التصرف فى أمورها .

وتم الزواج المبارك الذى صار مضرب الأمثال فى الحياة الأسرية الطيبة الهانئة التى جمعت ين الزوجين الكريمين برباط المودة والرحمة.

ودام ذلك الزواج خمسًا وعشرين سنة، زهاء ربع قرن كامل لم يعكر صفو السعادة فيه ولم يتزوج محمد ﷺ على خديجة رغم أن تعدد الزوجات كان هو قاعدة الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر .

وعندما ماتت خديجة بعد عشر سنوات من نزول القرآن الكريم حزن رسول الله ﷺ حزنًا عميقًا على فراقها حتى سمى المؤمنون ذلك العام بعام الحزن ؛ لأنها كانت بمثابة أم لهم .

وقفت إلى جانب النبى ﷺ تشد أزره فى أشد لحظات الابتلاء ؛ عند بدء الوحى وعند اشتداد اضطهاد الملأ من كفار قريش لأتباع النبى ﷺ وعند الحصار الذى ضربته قريش على المؤمنين وأقارب النبى ﷺ والذى دام ثلاث سنوات .

---

(١) "سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد" ، المجلد الثانى ، ص ٢٢٣ نقلاً عن الطبقات الكبرى لأبن سعد .

أسبغت على النبى ﷺ حنانها، وهيأت له ما أعانه على التفرغ لعبادة ربه وإبلاغ رسالته وأمدته بمالها ومشورتها المخلصة الحكيمة ورزقه الله منها البنين والبنات .

وظل النبى ﷺ وفياً لذكراها العطرة بعد موتها حتى آخر لحظة من حياته ﷺ .

يذكر أنس بن مالك ﷺ ـ وهو الرجل الذى أتيح له أن يخدم النبى ﷺ منذ كان صبياً له من العمر تسع أو عشر سنوات عندما قدم النبى ﷺ المدينة مهاجراً من مكة حتى توفاه الله بعد حوالى عشر سنوات ، وأتيح له بفضل هذه الصحبة الطويلة القريبة أن يتعرف على شخصية النبى ﷺ وأن يعرف سماته الخلقية كإنسان؛ يذكر أن النبى ﷺ "**كان إذا أتِىَ بالشئ** ــ يعنى هدية ــ **يقول اذهبوا به إلى فلانة أو إلى بيت فلانة فإنها كانت صديقة تحب خديجة**"[١]

تقول عائشة "**ما غرت على امرأة من نساء النبى ما غرت على خديجة**"[٢] وذلك رغم أنها لم ترها ولم تدركها لأن خديجة ماتت قبل أن يتزوج النبى ﷺ من عائشة بثلاث "**وما رأيتها إذ هلكت قبل أن يتزوجنى**

---

(١) انظر سبل الهدى والرشاد، الجزء الثانى عشر، ص ٤٥ ، وفتح البارى بشرح صحيح البخارى ، كتاب الأدب، الجزء الثانى والعشرين، ص ٢١٩ .

(٢) راجع نص وشرح الأحاديث أرقام ٣٨١٩ ، ٣٨٢٠ ، ٣٨٢١ ، ٥٢٢٩ ، ٦٠٠٤ ، ٧٤٨٤ فى كتاب "فتح البارى بشرح صحيح البخارى"، وص٤٤ من الجزء الثانى عشر من سبل الهدى الرشاد فى سيرة خير العباد .



وتزوجنى بعدها بثلاث سنين، ولكن كان النبى ﷺ يكثر من ذكرها" وتقول عائشة رضى الله عنها : " **كان لا يسأم من الثناء عليها والاستغفار لهـا كلما ذكرها"** .

"وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء فيهدى منهـا إلـى صـدائق خديجة ما يسعهن" .

وكان ذلك يضايق عائشة ــ رضى الله عنها ــ الزوج الشابة شديدة الغيرة على زوجها فتقول له **"كأنه لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة، فيرد** عليها بالثناء على خديجة قائلاً : **[إنها كانت وكانت وكان لى منها ولد]** .

وجاءت هالة بنت خويلد أخت خديجة ذات يوم تستأذن للدخول على النبى فعرف فى صوتها صوت خديجة وطريقتها فى الكلام فانتفض منتبهاً وكان فى غفوة وهو يقول **[اللهم هالــة]**(١) معبراً عن شدة شوقه إلى أيــام أمرأته الأولى خديجة . تقول عائشة **"فغرت فقلت ما تذكر من عجوز مــن عجائز قريش؟! حمرآء الشدقين**(٢) **هلكت فى الدهر . قد أبدلك الله خيــراً منها"** ــ تقصد نفسها .

---

(١) الحديث رقم ٣٨٢٤ من المصدر السابق ومعنى قوله ﷺ : **[اللهم هالــة]** : أتمنــى عليك يارب أن تكون هذه هالة .

(٢) "حمراء الشدقين" : قد سقطت أسنانها فلم يبق فى فمها إلا اللثة الحمراء .

ورأت عائشة على وجه النبى ﷺ غضباً شديداً لم تستطع مواجهته ففزعت . قالت "**فرأيت رسول الله ﷺ غضب غضباً شديداً وسقطت فى جلدى**"(١)

ودعت الله فى سرها : "**اللهم إن أذهبت غيظ رسولك لم أعد أذكرها بسوء ما بقيت**" .

ولما رأى النبى ﷺ ما بدا على وجهها مما تعانيه من فزع رقَّ قلبه لضعفها الانسانى؛ فما حملها على ما قالت إلا غيرة شديدة لم تستطيع أن تكبح جماحها فزال غضبه وقال لها مطمئناً معلماً :[**كيف قلت؟**]

[**والله ما أبدلنى الله خيرًا منها ، آمنت بى إذ كفر بى الناس وصدقتنى إذ كذبنى الناس وآوتنى إذ رفضنى الناس وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله ولدها إذ حرمنى أولاد النساء**] .

وأيقنت عائشة أن لا سبيل أمامها لانتزاع حب خديجة من قلب محمد الزوج الودود الوفى فقالت فى استسلام : "**والذى بعثك بالحق لا أذكرها بعد هذا إلا بخير**" .

ولذلك حرصت عائشة على أن تذكر فى حديثها أن رسول الله ﷺ قد "**بشر خديجة ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب**" .

وجاءت عجوز إلى النبى ﷺ فبش لها وبالغ فى إكرامها وأطال الحديث معها . قال لها : [**كيف أنتم ؟ وكيف حالكم ؟ كيف كنتم بعدنا" ؟**]

---

(١) سبل الهدى والرشاد ، الجزء الثانى عشر ، ص٤٤ ومعنى قولها "سقطت فى جلدى" أنها قد تهاوى بنيناها فلم تستطع أن تقوم أمام الغضب البادى على وجه الرسول ﷺ فصار جسدها كله كشىء ساقط على الأرض ملفوف فى ثوب أو خرقة هى جلدها.



وكانت المرأة تجيب "بخيرٍ بأبى أنت وأمى يا رسول الله" .

فلما خرجت العجوز سألته عائشة كالمستنكرة "من هذه ؟! يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ؟ إنك لتصنع بهذه العجوز شيئًا لم تصنعه بأحد؟" .

فقال محمد ﷺ الإنسان الودود الرحيم "**يا عائشة ! إنها كانت تأتينا زمان خديجة وإن حسن العهد وكرم الود من الإيمان** "[1] .

إن جوهر الرحمة يكمن فى معرفة البواعث (الدوافع) الفطرية المغروسة فى نفس كل مخلوق ومعرفة جوانب الضعف فى النفس الإنسانية ثم الاجتهاد فى إشباع حاجات تلك البواعث وحماية الإنسان من عوامل ضعفه بما يضمن مساعدته على الوصول إلى كماله المنشود .

ولا شك فى أن "الغيرة" من أقوى البواعث الفطرية المغروسة فى نفس الإنسان ، خاصة عند المرأة المحبة لزوجها ، كما أنها ـ من ناحية أخرى ـ تعد من أشد جوانب الضعف فى النفس الإنسانية التى تحمل صاحبها على عمل مالا يقبله العقل ولا يوافق الدين .

وكان من رحمته ﷺ أن نظر بعين العطف والرعاية إلى الغيرة المغروسة فى نفوس نسائه وأصحابه وتجلت تلك الرعاية فى مواقف عديدة خاصة مع زوجته الشابة الجميلة عائشة وكانت أشد نسائه غيرة عليه .

---

(١) انظر شرح الحديث رقم ٦٠٠٤ فى كتاب فتح البارى بشرح صحيح البخارى، وكتاب سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد "الجزء الثانى عشر ص٤٥ قوله "حُسن العهد" يعنى حفظ العهد ؛ أى الوفاء والإحسان إلى الذكرى .

كان رسول الله ﷺ جالسًا مع بعض أصحابه في بيت عائشة ينتظرون طعامًا تعده لهم على عجل ويبدو أن عائشة - رضى الله عنها- تأخرت بعض الشيء فى تجهيز الطعام - ولا ننسى أنها كانت صبية صغيرة السن قليلة الخبرة فى أول شبابها لا يُعتمد عليها فى إدارة بيت يؤمه الكثير من الرجال والنساء الذين يتوافدون على رسول الله ﷺ طوال الوقت ليلاً ونهاراً طلبًا للفتوى أو الوعظ أو الفصل فى القضايا .

وربما أرادت السيدة أم سلمة- رضى الله عنها - أن تنقذ الموقف وترفع الحرج فأرسلت خادمًا لها بطعام خبز ولحم فى صحفة[1] هدية إلى رسول لله ﷺ وإكرامًا لضيفه، وهاجت غيرة السيدة عائشة - رضى الله عنها- إذ رأت فى هذا الصنيع من أم سلمة إحراجاً لها أمام الرسول ﷺ وأصحابه لإظهار عجزها وقلة خبرتها، وأخذت السيدة عائشة رضى الله عنها رعدة عندما رأت خادم أم سلمة آتيه بالطعام فلم تملك نفسها من الغيرة .

فاندفعت وضربت يد الخادم بقوة فسقطت الصحفة على الأرض وانفلقت وتبعثر الطعام فأسرع رسول الله ﷺ يضم أجزاء الصحفة ويجمع فيها الطعام ويقول لأصحابه معتذراً: [**كلوا كلوا غارت أمكم**] يبين أن الذى حملها على هذا العمل القبيح هو غيرتها الشديدة فهو ﷺ يقدم لها العذر الذى يمنع أو يحميها من المؤاخذة واللوم .

---

(١) صحفة : أناء مبسوط واسع للطعام يصنع من غير الخشب، وقد وردت الكلمة بصيغة الجمع فى القرآن الكريم صورة بنفس المعنى ﴿ **يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ** ﴾ (الزخرف: من الآية٧١) وذلك فى سياق وصف نعيم أهل الجنة وفى المقابل فإن القصعة يعنى إناء كبير للطعام مصنوع غالباً من الخشب .



لكن هذا العمل تسبب فى إتلاف الصحفة التى كُسرت ولذلك أمسك رسول الله ﷺ بالخادم ولم يدعه يذهب حتى أمر السيدة عائشة بإحضار صحفة طعام أخرى فأعطاها لخادم أم سلمة وترك المكسورة فى بيت من كسرتها جزاءً وفاقاً تحقيقاً للعدل(١) .

وفى حادثة أخرى قدمت السيدة صفية بنت حيى ـ رضى الله عنهاـ طعاماً شهياً للنبى ﷺ وهو فى بيت عائشة ـ رضى الله عنهاـ وكانت صفية مشهورة بمهارتها فى الطهى حتى إن عائشة تعترف لها بذلك "ما رأيت صانعة طعام مثل صفية" ولا شك فى إن ذلك كان سبباً إضافياً لغيرة عائشة منها؛ ولذلك فهى تقول فى اعترافها [**ما رأيت صانعة طعام مثل صفية ، أهدت إلى النبى إناء فيه طعام فما ملكت نفسى أن كسرته**](٢).إنها ـ رضى الله عنهاـ لم تملك نفسهاـ مرة أخرىـ لكنها فى هذه المرة تعترف بخطئها وتندم وتعتذر وتطلب إصلاح ما أفسدته فقالت لرسول الله ﷺ : [**يا رسول الله ما كفارة ما صنعت؟**] .

قال ﷺ : "**إناء كإناء وطعام كطعام**" .

---

(١) هذه هى القصة الحقيقية ـ فى اعتقادنا ـ استخلصناها من الروايات المختلفة التى وردت فى كتب الحديث النبوى الشريف . انظر شرح الحديث رقم ٢٤٨١ والحديث رقم ٥٢٢٥ فى "فتح البارى" ، وانظر كتاب سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ـ الجزء الثانى عشر ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) رواه أحمد وأبو داود وغيرهما ـ نقلاً عن فتح البارى (فى شرح الحديث رقم ٢٤٨١) ، وسبل الهدى والرشاد ص ٢٣ من الجزء الثانى عشر.

هنا نلمس التأثير الطيب للتربية النبوية؛ حيث سارعت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ بإظهار الندم وطلبت أن تصلح خطأها بعد الدرس الذى تلقته فى الحادثة الأولى .

إن تحقيق العدل والمساواة بين الزوجات هو الضمانة الأساسية لضبط الغيرة حتى لا يتحول البيت إلى ميدان صراع بدلاً من أن يكون واحة من المودة والرحمة كما يحب الله ﷺ . ولقد التزم ﷺ بالعدل بين أزواجه كما أمر القرآن الكريم الذى اشترط العدل بين الأزواج (النساء) لإباحة التعدد بقوله: ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ ألا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً** ﴾[1] .

يعنى إذا أحسستم أنكم لن تستطيعوا تحقيق العدل بين الأزواج ، وقوى لديكم الشعور بالخوف من اقتراف الظلم فعليكم أن تكتفوا بامرأة واحدة فهذا هو الوضع الأمثل ، فإن الدنيا دار ابتلاء يمتحن فيها الإنسان بإقامة العدل الذى هو شريعة الله ، أن ﴿ **الظلم ظلمات يوم القيامة** ﴾.وعلينا أن نتذكر أن رسول الله ﷺ ظل متزوجاً من امرأة واحدة طيلة خمس وعشرين سنة متواصلة مثلت فى عمره المبارك طور الشباب والرجولة الناضجة .

---

(١) النساء: ٣ .

علينا أن نقول ــ هنا ــ كلمة موجزة عن إباحة تعدد الزوجات فى شريعة الإسلام، فإنها ضرورة إنسانية اقتضتها حقيقة طبيعية لا مفر ــ للعقل المنزه عن الهوى والتحيز والتعصب للإرث الثقافى ــ من الإقرار بها؛ وهى أن عدد الإناث فى أى مجتمع إنسانى يزيد على عدد الذكور لأسباب كثيرة منها المعلوم ومنها المجهول؛ ومن ثم يصبح تعدد الزوجات هو الوسيلة الشرعية (الدينية) الأكثر احترامًا للكرامة الإنسانية لإشباع الحاجات الفطرية لهؤلاء النساء الزائدات على عدد الرجال .



(ب) باب إشباع الحاجة إلى اللعب واللهو

إن حاجة النفس الإنسانية إلى اللعب واللهو من البواعث (الدوافع) الفطرية التى غرسها الله ﷻ فى باطن (قلب) كل نفس إنسانية وتشتد هذه الحاجة فى نفوس الأطفال والشباب من الجنسين الذكور والإناث .

إن المغزى العميق لهذه الحاجة الفطرية هو التعبير عن شوق الإنسان إلى عالم من البهجة واللذة خال من الحزن والألم . إنها ـ إذن ـ تنفيس مشهود وإفصاح رمزى عن الأمل فى الخلود ؛ الأمل فى دخول الجنة حيث لا مشقة ولا حرمان بل نعيم مقيم لا يزول .

ولقد احترم الرسول الرحيم ﷺ هذه الحاجة الفطرية ونظر إليها بعين الرعاية .

ونترك السيدة عائشة زوجة النبى ـ رضى الله عنها ـ تقص علينا ما صنعه الرسول ﷺ بها يوم النحر فى العام السابع بعد الهجرة بعد أن صلى العيد ونحر لله ..

تقول : **"دخل على رسول الله ﷺ وعندى جاريتان من جوارى الأنصار[1] تضربان بالدف وتغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم**

---

(١) ذكرت بعض الروايات أن اسم الجاريتين هما "حمامة وزينب" .

بُعاث[1]. دخل الرسول فاضطجع على فراشه وتغشى بثوبة وحول وجهه عنهن" .

كان يبدو عليه التعب ويريد أن يأخذ قسطاً من الراحة .

وجاء أبو بكر ﷺ يزور ابنته فى العيد فوجد الرسول نائمًا وقد غطى رأسه وأعطى ظهره لعائشة والجاريتين تغنيان وتدففان .

---

(١) يوم بعاث هو الحرب الشديدة، بل المقتلة العظيمة التى وقعت بين قبيلتين الأوس والخزرج في المدينة المنورة (التى كان اسمها يثرب) قبل ثلاث سنوات من هجرة النبى ﷺ والتى مات فيها أغلب زعماء القبيلتين وخلفت وراءها حزناً وبكاءً وعويلاً ملأ كل بيت من بيوت العرب فى يثرب وأثمرت عداوة شديدة بينهما حيث عزم كل فريق على إفناء خصمه وذهب بعض زعمائهم إلى مكة ليتحالفوا مع قريش ضد عدوهم فقابلوا هناك فى أم القرى رسول الله ﷺ وكان من فضل الله ﷻ عليهم وعلى الناس جميعاً أن تمكن رسول الله ﷺ بتوفيق من الله ﷻ من الإصلاح بين القبيلتين المتحاربتين فاستطاع أن ينزع فتيل الحرب بين أبنائهما وأقنعهم بالدخول فى الإسلام ليكونوا جميعاً أخواناً فى الله متحابين وكان من ثمرة هذا العمل العظيم أن هاجر الرسول ﷺ وأصحابه من مكة إلى يثرب التى سيصير اسمها المدينة المنورة حيث سيبدأ التاريخ الإسلامى وتنشأ الحضارة الإسلامية .
وعلينا أن نلاحظ أن الجاريتين كانتا تضربان بالدف وتنشدان أشعارًا فى الحماسة والفخر والهجاء ألقيت من الجانبين المتحاربين قبيل وأثناء المعركة لحث الرجال على القتال وكلنا يعرف أن القصيدة الجاهلية كانت تبدأ دوماً بالنسب أو شعر الغزل ومن ثم فلم تكن الأشعار التى تغنت بها الجاريتان أشعارًا دينية أو مواعظ أخلاقية مباشرة وقد أجازها الرسول ﷺ بفعله وقوله كما يتضح جلياً دون لبس ولا غموض فى هذا الحديث النبوى الشريف الصحيح .



ظن أبو بكر ﷺ أن الرسول ﷺ لم يعلم بما يحدث فى بيته وخشى أن يزعجه صوت الغناء وضرب الدف فيوقظه من نومه واستنكر أن يقع هذا الشر ــ كما يظن ــ فى بيت النبى وفى حضوره ﷺ .

تقول عائشة: "**فانتهرنى وانتهر الجاريتين وقال : مزمارة الشيطان عند النبى؟! يا عباد الله أبمزمور الشيطان عند رسول الله ؟!**"

كان يصيح فى غضب مستنكرًا ما يرى فانتبه رسول الله ﷺ من غفوته، تقول عائشة : [**فكشف النبى ﷺ عن رأسه وأقبل عليه بوجهه فقال : دعهما يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا**] .

تيقن أبو بكر ﷺ أن الرسول ﷺ يعلم بما يجرى ويسمع به فجلس مع الرسول ﷺ بعض الوقت يتكلمان مع بعضهما بينما كانت عائشة منشغلة بالاستماع إلى غناء الجاريتين. وأستأذن أبو بكر ﷺ من النبى وانصرف .

وعاد النبىﷺ إلى الاضطجاع طلباً للراحة . تقول عائشة ــ رضى الله عنهاــ : "**فلما غفل**" ــ تقصد استغرق فى النوم ــ **غمزتهما فخرجتا**" أشارت إلى الجاريتين وأومأت إليهما بعينها "أن كفى" إذ كانت قد شبعت من السماع وأرادت الراحة .

ولكن لم يمض إلا قليل من الوقت حتى جاء وفد من الحبشة فيه عدد كبير من الرجال يلبسون الدروع (الدرق) ويحملون الرماح ، فلما علموا أن اليوم عيد عند المسلمين أحبوا أن يشاركوا المسلمين فرحهم بالعيد ، وأن يدخلوا السرور فى قلوبهم "بعرض فنى رياضى" يستعرضون فيه قوتهم ومهارتهم فى اللعب بالحراب .

تقول عائشة ـ رضى الله عنها ـ : **"سمعت لغطاً وصوت صبيان فقام النبى ﷺ فإذا حبشة تزفن (ترقص) والصبيان حولها"**[1] .

أخبرها النبى بما رأى وأحس برغبتها فى رؤية العرض فقال ﷺ لها: **"يا حميراء تشتهين تنظرين؟"**[2] .

"قلت : نعم"

"قال : تعالى فانظرى"

تقول عائشة ـ رضى الله عنها ـ : **"فأقامنى وراءه يسترنى بردائه ، فوضعت ذقنى على عاتقه وأسندت خدى إلى خده وجعلت أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون فى المسجد من بين أذنيه وعاتقه .**

وجاء عمر بن الخطاب ﷺ إلى المسجد ففوجئ بالأحباش يلعبون فيه بالحراب فظن أن ذلك منهم استهزاء بالمسجد **"فزجرهم وأهوى إلى الحصباء** ـ فى أرض المسجد ـ **فحصبهم** (قذفهم) **بها"** ففزع الأحباش وأمسكوا عن اللعب ونظروا إلى الرسول ﷺ ينتظرون حكمه .

وعلا صوت النبى ﷺ وهو ينهاه **[دعهم يا عمر إنهم بنى أرفدة لتعلم يهود أن فى ديننا فسحة وأنى بعثت بحنيفية سمحة]**[1] .

---

(١) نحب أن نوجه عناية القارئ الكريم إلى أن بيوت أزواج النبى ﷺ كانت ملاصقة للمسجد وأن أبواب الحجرات كانت تفتح على ساحة المسجد .

(٢) قوله ﷺ : [يا حميراء] يعنى "يا بيضاء" لأن العرب تطلق الأحمر على الأبيض عند الوصف خاصة للنساء .



وتوجه بخطابه ﷺ إلى الأحباش قائلاً [أمنًا بنى أرفدة أمناً بنى أرفدة] .

يعنى لا تخافوا لا تخافوا .

فاستعادوا اطمئنانهم وأراد أن يحثهم على استعادة نشاطهم فقال ﷺ :

[دونكم بنى أرفدة دونكم بنى أرفدة]

يعنى أمامكم ساحة المسجد العبوا فيها ما شئـتم .

فاسترد الأحباش نشاطهم وأخذوا يلعبون والمسلمون يشاهدونهم فـى سرور وطال اللعب وأراد الرسول ﷺ الانصراف عنه .

فقال لعائشة "أما شبعت؟ " فقالت : لا .

ثم أعاد عليها السؤال مرة أخرى "أما شبعت" "فقالت : لا" .

---

(١) قوله ﷺ : [بنى أرفدة] ينسب الأحباش إلى جدهم الأكبر، وقولـه ﷺ [دعهـم إنهـم بنى أرفدة] يعنى هؤلاء من أهل الحبشة الذين استضافوا المؤمنين الفـارين بـدينهم مـن اضطهاد قريش ؛ فإنهم أصدقاء وليسوا بأعداء .

وقوله ﷺ "**فى دنينا فسحة**" يعنى شريعتنا سهلة ميسرة ليس فيها تضييق على الناس ولا تعنت .

وقوله ﷺ : "**وأنى بعثت بحنيفية سمحة**" يعنى أن رسالتى تجديـد وإحيـاء لملـة إبراهيم الذى "**كان حنيفاً ولم يكن من المشركين**، وهى ملة تتصف بالـسماحة ومـسالمة الناس والتودد إليهم . ولفت الأنظار إلى اليهود؛ لأنهم هم الذين أشاعوا ــ ومـا يزالـون يفعلون ــ أن الإسلام هو دين الإرهاب والتشدد والعنف وذلـك بعـد أن حـاولوا ــ ولا يزالون يحاولون ــ إبادة الإسلام فأمكن الله منهم واستطاع الرسول ﷺ هـزيمتهم وكانـت آخر معاركهم غزوة خيبر فى العام السابع بعد الهجرة وهو العام الذى جاء الأحباش فـى آخره .

تقول عائشة "**فجعلت أقول لا ، لأنظر منزلتى عنده**" تعنى أنها كانت تريد أن تختبر حبه ﷺ لها وقبوله للقيام من أجلها .

ثم قال لها :" حسبك" يعنى يكفيك هذا القدر .

فقالت له : يا رسول الله لا تعجل" .

وتفسر السر وراء إجابتها بقولها "**وما بى حب النظر إليهم ولكن أحببت أن يبلغ النساء** ــ تعنى أزواج النبى ضرائرها ــ **مقامه لى ومكانى منه**" .

تعنى أنها أرادت أن تتفاخر على ضرائرها يحب الرسول ﷺ لها وأنه رضى أن يقف كل هذا الوقت من أجلها ليعلم الجميع علو منزلتها عنده .

تقول "**حتى إذا مللت**" . "**قال : حسبك**" .

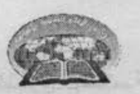
"**قلت : نعم**" . "**قال فاذهبى** ".

وأخيراً تقول عائشة ــ رضى الله عنها ــ وهى تستخلص العبرة من هذه القصة: **فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو** "[1] .

ولا أرضى أن القصة ، بهذا السياق ــ تحتاج إلى تعليق أو تعقيب ولا إلى شرح أو تفسير فإنها تفصح بأبلغ بيان عن رحمة النبى ﷺ واحترامه ورعايته لحاجات النفس الإنسانية .

---

(١) استخلصنا هذه القصة من الروايات الصحيحة التى أوردها ابن حجر فى كتاب "فتح البارى بشرح صحيح البخارى" عند شرحه للأحاديث أرقام : ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٩٤٩ ، ٩٥٠ ، ٩٥٢ ، ٩٨٧ ، ٩٨٨ ، ٢٩٠١ ، ٢٩٠٦ ، ٢٩٠٧ ، ٣٥٢٩ ، ٣٥٣٠ ، ٣٩٣١ ، ٥١٩٠ ، ٥٢٣٦ .



(ج) باب وصية الرسول (ﷺ) بالنساء

أكد رسول الله ﷺ رحمته بالنساء فقال فى ختام حديث نبوى جامع ينظم العلاقات الاجتماعية [**واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن خلقن من ضلع أعوج ، وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيراً**][1] .

قوله ﷺ : [**استوصوا بالنساء خيراً**] يعنى ليوصى بعضكم بعضاً ببذل الخير إلى النساء متخذين فى ذلك كل الوسائل الممكنة لكم، فلم يقل ﷺ : "أوصيكم" بل قال [**استوصوا**] جاعلاً الوصية أمراً عاماً يقوم به كل الرجال مستعملاً حرف "السين" الدال على الطلب والوسيلة مشيراً بذلك إلى حث الرجال إلى اتخاذ التدابير والوسائل التى تمكن من تحقيق الخير وإيصاله إلى النساء "**والخير**" هنا يعنى النفع أى ما يفيد سواء فى الحياة الدنيا أو الآخرة .

إنها عناية فائقة ورعاية كريمة للمرأة ؛ شقيقة الرجل لإنها الشق الأضعف الذى يحتاج إلى المزيد من الرحمة من أجل أن ينمو ويبلغ كماله المنشود . وقد بَيَّن الرسول الرؤوف الرحيم ﷺ الحكمة القائمة وراء هذه الوصية الحنون فقال [**فإنهن خلقن من ضلع**] مذكراً الرجال بأن النساء قد خلقن من ضلوعهم وإن تذكر هذه الحقيقة التى تغيب عن العقل فى

---

(١) الحديث رقم ٥١٨٦ فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى .

العالم المشهود توجب عليهم إن يشعروا بأنهم آباء للنساء ؛ فقد ولَدَ الرجلُ المرأةَ من ضلعه قديماً عندما نشأت من آدم حواء .

هل يمكن للإنسان أن يتصوروجود من هو أرحم بالمولود من والده ؟ إذن فعلى الرجال أن يتذكروا تلك الحقيقة ــ التى تغيب عن عقولهم فى غبار فتنة الحياة الدنيا ــ وأن يرحموا النساء كما يرحم الوالد مولوده.

ثم استلهم الرسول ﷺ تلك الحقيقة لبيان الاختلاف الفطرى الجوهرى بين الرجل والمرأة فى مجمل فعاليات الشخصية الإنسانية ، أعنى فى الفكر والوجدان والسلوك التى تمثل مظاهر حياة النفس الإنسانية .

وهذا الاختلاف لا يعنى أن المرأة أقل إنسانية من الرجل أو أنها أسفل منه فى رتبه الكائنات الحية، ولكنه يعنى أن الرجل هو المؤهل فطرياً لقيادة المرأة فى الحياة الاجتماعية ، وهذا معنى "القوامة" التى ذكرها القرآن ، لأن الرجل يعد ــ فى الأصل القديم ــ أباً للمرأة ؛ فإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يعيش الحياة الكريمة الجديرة به إلا فى أسرة تعد هى الخلية أو الوحدة البنائية لجسم الأمة ، فإن قيادة الأسرة ينبغى أن تكون فى يد الرجل .

وهذا الإختلاف بكل تأكيد يعنى أن المرأة تتعامل مع الأشياء، وفى المواقف المختلفة وتتصرف فى الحياة على نحو لا يماثل أسلوب الرجل ، فإن لها رؤية أو وجهة ــ أنثوية أو نسوية ــ نظر تختلف عن تلك التى "يرى" بها الرجل الأشياء ولذلك قال ﷺ : **[وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه]** .



والمعنى المقصود أن للمرأة طريقتها فى التفكير والتعامل مع الأشياء التى تخالف طريقة الرجل ، فإذا شبهنا طريقة الرجل بالخط المستقيم فإن طريقة المرأة هى الخط المنحنى وإذا كان الرجل يعتمد الأسلوب المباشر المستند إلى الحقائق الموضوعية والمصالح التى يدركها العقل النفعى عند ممارسة الحياة ومواجهة المشاكل فإن المرأة تفضل الأساليب غير المباشرة المتكئة على الوجدان والعواطف ولذلك تبدو لعقل الرجل معوجة بعيدة عن الاستقامة .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا العقل النسوى شديد الالتفات إلى الزينة ومظاهر الجمال فى الحياة والذى لا يستطيع أن يحسم الخلاف فى القضايا الجدلية بقوله ﴿**أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ**﴾[1] .

قوله ﷻ ﴿ **يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ** ﴾ يعنى يربَى وينمو فى الزينة وهو يشير بهذا التعبير إلى شدة ميل النساء إلى الزينة ، وفيه إشارة إلى دور التربية فى تنمية وتقوية هذا الميل ، ومن ثم فيمَكن تعديل هذا الميل الفطرى من خلال التربية حتى لا يتحول إلى إسراف مرضى ، ولكن تبقى الحقيقة راسخة : أن الأنثى أكثر ميلاً إلى الزينة (الحلية) وأن هذا الميل يحكم سلوكها وليس من الحكمة فى شئ أن نحاول تغيير الفطرة وطمس معالم الاختلاف (التنوع) بين الذكر والأنثى من أجل تحقيق هدف أحمق مستحيل وهو عبث لا فائدة منه ، وأعنى به تماثل النوعين ؛ الذكر والأنثى بحيث

---

(١)الزخرف : ١٨ .

تتشابه المرأة مع الرجل فى كل شئ وتوافقه على كل رأى وتصير صورة طبق الأصل منه .

ولقد أوضحت الرواية التى أوردها الإمام مسلم فى صحيحه لهذا الحديث هذه الحقيقة ففيها "**لن تستقيم لك على طريقة** " يعنى لا تتوهم ـ أيها الزوج الرجل ـ أن امرأتك سوف توافقك على كل ما ترى ولن تخالفك أو تعارضك فى شئ ، فإن ذلك محال بموجب الفطرة الآلهية التى صنع الله مخلوقاته على قانونها الحكيم .

ولكن هل معنى هذا أن يترك الرجل ـ الذى أعطاه الله درجة القوامة ـ امرأته دون تقويم متخلياً عن مسئوليته مضيعاً الأمانة التى حملها الله له وأودعها فى جذر عنقه ؟ وهى الحال التى أشار إليها النبى ﷺ بقوله "**وإن تتركه لم يزل أعوج**" يعنى وإن تتركه دون تقويم يظل على حاله من العوج مما قد يؤدى إلى حدوث مفاسد وأضرار تدمر حياة الأسرة والأمة ولابد ـ إذن ـ من التقويم ولكن بروح الرحمة التى تنظر بعين العطف إلى مواضع الضعف وهى تنشد الكمال المستطاع ولذلك قال ﷺ فى ختام الحديث مرة أخرى [**فاستوصوا بالنساء خيراً**] يعنى عند قيامكم بأداء أمانة تقويمهن التى تحملتموها بدرجة "**القوامة**" .

ولن تبلغوا أبداً التوافق الكامل أو الوفاق التام فسيبقى الاختلاف بينكم حقيقة باقية على الدوام ولذلك جاء فى الرواية الأخرى [**وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج**] [١] فهذا الاستمتاع الناقص هو أقصى ما يُنَال .

---

(١) الحديث رقم ٥١٨٤ فى المصدر السابق .



وأعلى ما يُطْمَح إليه فى هذه الحياة الدنيا التى جعلت ميداناً للابتلاء وليست جنة للنعيم.

ولقد ضرب ﷺ لنا بحياته الخاصة مع نسائه المثل الأعلى الذى ينبغى على كل إنسان أن يقتدى به .

سأل الأسود بن يزيد ــ وكان رجلاً فقيهاً عميق التدين من جيل التابعين ــ عائشة ــ رضى الله عنهاــ "عما كان رسول الله ﷺ يصنع فى بيته؟ فأجابته : [**كان بشراً من البشر ، يحلب شاته ، ويخيط ثوبه ،ويخدم نفسه ويخصف نعله ويعمل ما تعمل الرجال فى بيوتهم ويكون فى مهنة أهله ، فإذا سمع المؤذن خرج للصلاة**] [1] .

قولهاــ رضى الله عنهاــ :[**يخصف نعله**] يعنى يخرزها بالمخصف، أى يقوم بترقيعها وإصلاحها .

وقولها ــ رضى الله عنهاــ : "**ويكون فى مهنة أهله**" يعنى يساعد أهله فى أعمال البيت ومصالح المعيشة .

وسألت عمرة السيدة عائشة ــ رضى الله عنهاــ : "عن خلق رسول الله ﷺ إذا خلا مع نسائه ؟" فأجابت" **كان كالرجل من رجالكم ، إلا أنه كان أكرم الناس ، وأحسن الناس خلقاً وألين الناس ضحاكاً بساماً**"[2] .

ويقول ﷺ : [**خيركم خيركم للنساء**] [3] يعنى أن حسن معاملة النساء هو أحد المعايير الأساسية التى يقاس بها حقيقة تدين الرجال

---

(١) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ــ الجزء الثانى عشر ص ٢٤ .

(٢) المصدر السابق ص٢٢

(٣) الحديث رقم ٣٣١٦ فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) .

وتفاضلهم فى ميدان الأعمال الصالحة فكلما ازداد إحسان الرجل إلى النساء دل ذلك على صحة وعمق إيمانه ورسوخ قدمه فى العمل الصالح .

ومن أجل ذلك قال رسول الله ﷺ "**الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله أو كالذى يصوم النهار لا يُفْطِر ويقوم الليل لا يَفْتُر**"(١) .

والخلاصة أن عبادة الله تتحقق بخدمة الإنسان .

جاءت امرأة مسكينة تحمل ابنتين لها إلى السيدة عائشة زوج النبى تسألها الصدقة ، وكان النبى ﷺ قد قال لها "**لا يرجع من عندك سائل ولو بشق تمرة**"(٢) فأخذت عائشة ـ رضى الله عنهاـ تبحث عن شئ تعطيه هذه المرأة الجائعة وابنتيها فلم تجد إلا ثلاث تمرات، فأعطت المرأة كل واحدة من ابنتيها تمرة ورفعت الثالثة إلى فيها لتأكلها ، لكن البنتين مدتا يديهما تستطعمان أمهما .

فشقت المرأة تمرتها نصفين وأعطت ابنتيها؛ كل واحدة منهما شقاً ولم تأكل هى شيئاً وانتظرت بعض الوقت فلم تظفر بشئ فقامت وخرجت . لقد أُعجبت السيدة عائشة بهذه المرأة الجائعة المسكينة التى آثرت ابنتيها على نفسها فلم تملك نفسها من شدة الإعجاب فما أن حضر النبى ﷺ) حتى أسرعت تحكى له ما قامت به المرأة وسط جمع من الرجال والنساء كانوا

---

(١) الحديث رقم ٦٠٠٦ ، والحديث رقم ٦٠٠٧ فى فتح البارى .

(٢) رواه البزار من حديث أبى هريرة (ﷺ) ـ نقلاً من فتح البارى بشرح صحيح البخارى الجزء السابع ـ كتاب الزكاة ـ ص٣٣ .



ينتظرون النبى ﷺ فقال : **[من ابتلى من هذه البنات بشئ فأحسن إلـيهن كن له سترا من النار]**[1] .

ثم قال ﷺ مبيناً معنى الإحسان : **[من كان له ثلاثة بنات ، فـصبر عليهن ، وأطعمهن وسقاهن وكساهن من جدته كن له حجاباً مـن النـار يوم القيامة]** [2] .

فقال امرأة : "أو اثنتين.؟" قال ﷺ موافقاً : **[أو اثنتين]**
[من عال جاريتين حتى يدركا ، دخلت أنا وهو الجنة كهاتين][3] .
"وأشار بأصبعيه المسبحة والوسطى" .

قوله ﷺ : **"جاريتين"** يعنى امرأتين صغيرتين فى السن بدليل قولـه **"حتى يدركا"** وهو المعنى الذى أوضحته أم سلمة زوج النبـى رضـى الله عنها فى روايتها للحديث فقالت **"من أنفق على ابنتين أو أختين أو ذاتـى قرابة يحتسب عليهما كانتا له ستراً من النار"**[4] .

فقيل للرسول : وواحدة . فقال (ﷺ) : **وواحدة .**

---

(١) الحديثان ١٤١٨ ، ٥٩٩٥ فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى

(١)الحديث رقم ٦٤٨٨ فى كتاب صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) .

(٢) الحديث رقم ٦٣٩١ ــ فى المصدر السابق .

(٣)أخرجه الإمام أحمد فى مسنده كما ذكر ابن حجر فى شرحه للحديث رقم ٥٩٩٥ فـى صحيح البخارى .

كتاب رحمته (ﷺ) بالأطفال

(أ) باب (وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً)[1]

ينبه القرآن قلب الإنسان إلى ضعفه وإلى الأثر النافذ للزمن فى بنيانه فيقول ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرِ ﴾[2]

قوله ﷻ : " **مِنْ ضَعْفٍ**" بيان وتأكيد لحقيقة الضعف الإنسانى ؛ إذ يجعل الضعف ـ وهو نقيض القوة ـ المادة التى صنع منها الإنسان ؛ ولا شك فى أن ذلك التعبير هو الأبلغ فى الدلالة على أن الضعف طبيعة متأصلة ملازمة للإنسان فى جميع أطواره رغم القوة الظاهرة التى يشعر بها بل ويبالغ فى تقديرها عند بلوغه مرحلة الشباب والرجولة .

ولذلك قال القرآن : **﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾** [3] .

والضعف هو الفجوة بين الرغبة والقدرة ، بين الهدف الذى يسعى الإنسان لبلوغه وقدرته على الوصول إليه ، بين الرغبة التى يشتهى

---

(١) النساء : ٢٨ .

(٢) الروم : ٥٤ .

(٣) النساء : ٢٨ .



الإنسان تحقيقها ووسائله لإدراك ذلك . ولذلك فكلما ارتفعت غاية الإنسان وبعدت أهدافه وكثرت شهواته كلما استبان ضعفه .

وإذا نظرنا إلى الإنسان فى أصل تكوينه حيث كان نطفة تُقذف فى الرحم مع ماء الرجل عند الجماع . نطفة متناهية الصغر لا تُرى بالعين المجردة ، لا حول ولا قوة لها ، تسبح مع ملايين من أمثالها فى قليل من السائل الأبيض اللزج الذى يشبه البصقة . تسعى إلى أن تصير إنساناً كاملاً يحمل أمانة خلافه الله فى الأرض . إذا نظرنا إلى تلك البداية ــ مستحضرين فى عقولنا الغاية أو النهاية التى يسعى لبلوغها ــ أدركنا كم كان القرآن حكيماً عليماً حين قال ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ** ﴾ .

وإذا نظرنا إلى الطفل يولد من رحم أمه عرياناً صارخاً جائعاً ، لا يستطيع أن يطعم نفسه ولا أن يستر عريه ولا أن يحمى نفسه أو ينظف جسده .. علمنا كم هو محتاج إلى مساعدة غيره كى ينمو ويصل إلى غاية كماله المنشود، ومن ثم فإنه فى أمس الحاجة إلى الرحمة . ولذلك يمكننا اعتبار معاملة الأطفال معياراً صحيحاً موثوقاً فيه للكشف عن الرحمة التى أودعها الله ﷻ فى قلب الإنسان .

(ب) باب الوالد الرحيم

جآء الأقرع بن حابس فى وفد بنى تميم إلى المدينة المنورة واجتمعوا عند رسول الله ﷺ فى المسجد وكان معه بعض أصحابه ورجال من الأعراب .

وبينما كان الرجال جالسين يستمعون إلى رسول الله ﷺ ويتكلمون معه إذ أقبل الحسن بن على – رضى الله عنهما– طفلاً صغيرًا يتعثر فى سعيه وسط الرجال يريد الوصول إلى جده ﷺ .

وتعجب الرجال القادمون إلى المدينة المنورة من صنيع الرسول ﷺ مع هذا الصبى الصغير "كيف انصرف عن الرجال واهتم بطفل لا يؤبه له ؟ وكيف عانقه وأخذ يقبله؟" .

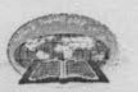
فقال الأقرع بن حابس[1] مستنكرًا :" أتقبلون الصبيان ؟"

فقال النبى ﷺ : **نعم**

قال الرجل :فو الله ما نقبلهم ، إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدًا وما قبلت إنسانًا قط!!

---

(١) اختلفت بعض روايات الحديث فى اسم من تكلم مع الرسول ﷺ محتجًا على تقبيل الأطفال، ولكن رواية أبى هريرة الواردة فى البخارى هى الصحيحة وأعتقد أن الخلط كان بسبب حضور الكثير من الرجال عند رسول الله ﷺ فى ذلك المقام الذى نزلت فيه سورة الحجرات .



فنظر إليه رسول الله ﷺ مليًا متعجبًا من فظاظته وغلظة قلبه ثم قال له : **[وما أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة]** .

[من لا يرحم لا يرحم][١]

كان النبى ﷺ يبدو ــ غالبًا ــ لأصحابه فى صورة الأب الرحيم المحب لأبنائه وأحفاده . يحكى أبو قتادة الأنصارى ﷺ أن أصحاب النبىﷺ كانوا ينتظرونه فى المسجد ليؤمهم فى الصلاة وكان بلال ﷺ قد رفع الأذان ثم ذهب يدعو رسول الله ﷺ إلى الصلاة، وبينما كان الناس ينتظرون فإذا به ﷺ يخرج عليهم حاملاً حفيدته "أُمامة" ــ بنت كبرى بناته زينب من زوجها أبى العاص بن الربيع ــ على عاتقه والناس ينظرون فى دهشة يتساءلون هل سيصلى وهو يحملها ؟!

أخذ طريقه إلى مصلاه فأعلن "بلال" الإقامة وقام رسول الله ﷺ إمامًا وقام الناس خلفه فكبر و"أُمامه" على عاتقه فلما أراد أن يركع وضعها على الأرض أمامه فى القبلة ثم ركع وسجد حتى إذا فرغ من السجدتين قام وحملها ووضعها على عاتقه خشية أن تبكى ؛ لأن الطفلة الصغيرة كانت متشبثة به لا تطيق فراقه واستمر على هذا المنوال حتى أتم صلاته[٢] .

إن جوهر العمل النبوى أو الدرس الذى ينبغى تعلمه من هذه القصة هو بيان أن الصلاة ــ فى حقيقتها ــ تقرب من العبد إلى الله طلبًا لرحمته، وهى ــ فى نفس الوقت ــ تقرب من الله إلى عباده المؤمنين فيضًا برحمته عليهم، والرأفة بالأطفال والشفقة عليهم من أَجَلّ مظاهر الرحمة الإلهية

---

(١) الحديثان رقم ٥٩٩٧ ، ورقم ٥٩٩٨ فى كتاب فتح البارى بشرح البخارى .

(٢) انظر شرح الحديثين ٥١٦ ، ٥٩٩٦ فى المرجع السابق .

التى أودعها فى قلوب البشر، ومن ثم فليس ثمة تعارض بين رعاية الأطفال والحنو عليهم وبين إقامة الصلاة والخشوع فيها حتى إذا حدث ذلك أثناء الصلاة والواجبات الدينية .

وكان ﷺ يخطب الناس فى المسجد فجاء الحسن بن على ، طفلاً صغيرًا يتعثر فى مِشيته فسقط على الأرض ، فنزل النبى ﷺ من فوق المنبر يريد حمله فأخذه الناس وأتوه به فقال ﷺ : **صدق الله حقًا ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾**(1) . **[قاتل الله الشيطان والله ما علمت أنى نزلت من المنبر حتى أوتيت به]**(2) .

وأخذ النبى ﷺ حفيده الحسن بن على رضي الله عنه ووضعه بجانبه على المنبر وهو يخطب الناس فى المسجد(3) .

وكان النبى ﷺ يعانق حفيديه الحسن والحسين ويشمهما ويقبلهما ويقول لمن سأله عن ذلك : **[هما ريحانتاى من الدنيا]** (4) مشبهًا حفيديه بزهرتين أو وردتين حصل عليهما من الدنيا التى هى أرض الابتلاء المليئة بالأشواك .

---

(1) التغابن :15 .

(2) سبل الهدى والرشاد ــ الجزء السابع، ص 50 .

(3) الحديث رقم 3746 فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، كتاب المناقب، باب مناقب الحسن والحسين ــ رضى الله عنهما ــ .

(4) الحديثان 3753 و 5994 فى المصدر السابق .



(جـ) باب الروح المبارك

كان النبى ﷺ فى نظر المؤمنين كائنًا مباركًا موصولاً بسر الحياة ولذلك حرصت النساء وكذلك الرجال على إحضار أطفالهم له من أجل أن يضع يده عليهم ليباركهم ويدعو الله لهم . وكانﷺ يصنع ذلك لهم كما كان يقوم بمضغ قطعة صغيرة من التمر فى فمه جيداً ثم يقوم بوضعها فى فم المولود ويدلك حنكه بها وهذا العمل هو ما أطلق عليه اسم "التحنيك" .

وكان المؤمنون جميعًا حريصين أشد الحرص على نيل تلك البركة .

خرجت أسماء بنت أبى بكر ــ رضى الله عنهما ــ من مكة ، مهاجرة تريد المدينة المنورة عندما جاء زيد بن حارثة ﷺ ــ الذى كان حينذاك ابنا للنبى بالتبنى ــ موفدًا من الرسول ﷺ ليصحب أهله وأهل أبى بكر إلى أرض الهجرة بعد أن استقر المسلمون ووجدوا فيها ملاذاً آمناً .

خرجت أسماء وهى حامل فى شهرها الأخير توشك أن تضع جنينها وكان معها امرأة أبيها " أم رومان" وأختها "عائشة" زوج الرسول ﷺ التى لما يدخل بها وأخوها "عبد الله بن أبى بكر" وكانوا جميعاً فى صحبة أهل النبى ﷺ : امرأته سودة بنت زمعة التى تزوجها بعد وفاة خديجة ــ رضى الله عنها ــ منذ ثلاث سنوات ــ وإبنتاه "أم كلثوم" و"فاطمة" والسيدة "أم أيمن" التى كانت حاضنته ﷺ عندما كان طفلاً ومعها ابنها أسامة ويقود الركب زوجها زيد بن حارثةﷺ .

عندما وصل الركب إلى قباء ــ التى كانت تعد بوابة المدينة المنورة (يثرب) ينزل عندها المسافرون قبل الدخول فى المدينة ــ فاجأ المخاض أسماء فولدت ابنها البكر وحرصت على أن تسرع به إلى النبى ﷺ ليباركه، فلم ترضعه وأسرع الركب المهاجر إلى مسجد رسول الله ﷺ الذى انتهى المسلمون من بنائه قريبًا حيث كان النبى يجلس مع أصحابه ، فوضعت أسماء مولودها فى حِجر النبى ﷺ فأخذه منها وقَبَّله ، وطلب تمرة فأحضروها بعد لحظات ظل فيها المولود فى حجر الرسول ﷺ ينظر إليه متأملاً فى قدرة الخالق الرحيم، وعندما أتوا بالتمرة أخذها الرسول ومضغها جيداً فى فمه ثم تفل فى فم المولود فكان ريقه ﷺ هو أول شىء يدخل فى جوف ابن أسماء، ثم وضع التمرة فى فمه ودَلَكَ حنكه بها ثم أعطاه اسمه فقال : **[هو عبد الله]** ودعا له بالبركة ثم أعطاه لأمه التى ظلت تفاخر بهذا الشرف طيلة حياتها المديدة[١] .

وعندما أنعم الله على أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه بأول أبنائه فإنه أسرع به إلى رسول الله ﷺ فأعطاه اسمه "**إبراهيم**" وحنكه بتمرة ودعا له بالبركة[٢] .

وكان "السائب بن يزيد" صبيًا صغيرًا عاجزًا عن الحركة ، فحملته خالته إلى النبى ﷺ وهو يتوضأ استعدادًا للصلاة فقالت :

" يا رسول الله ! إن ابن أختى وَجِعَ فادع له .

---

(١) انظر شرح الأحاديث ٣٩٠٩ ، ٣٩١٠ ، ٥٤٦٩ فى كتاب " فتح البارى بشرح صحيح البخارى"

(٢) الحديثان ٥٤٦٧ ، ٦١٩٨ فى المصدر السابق .



فأخذه رسول الله ﷺ فمسح على رأسه ودعا له بالبركة، فقام الصبى نشيطًا وأُلْهِمَ أَنْ يشرب من الماء الذى كان النبى ﷺ يتوضأ به وسار خلف الرسول واستطاع أن يرى خاتم النبوة فى أعلى ظهر النبى ﷺ (قطعة صغيرة من اللحم حمراء اللون تشبه البندقة أو بيضة الحمامة بين الكتفين أقرب إلى أعلى الكتف الأيسر) . ولقد عاش "السائب بن يزيد" صحيحًا قويًا معافى حتى أوشك أن يتم المائة سنة . ولقد رآه "الجعيد بن عبد الرحمن" وهو ابن أربع وتسعين سنة جلدًا معتدلاً متمتعًا بسمعه وبصره فسأله عن "سر" ذلك فقص عليه الخبر، وقال: "قد علمت .ما مُتعت به من سمعى وبصرى إلا بدعاء رسول الله ﷺ[1].

وذهبت أم قيس بنت محصن بابنها الرضيع ـ الذى لم يكن يكف عن الصراخ والبكاء ـ إلى النبى ﷺ فأخذه منها ، ووضعه فى حجره وبينما كان يحنكه (يضع التمرة الممضوغة فى فمه) بال الرضيع على ثوب النبى ﷺ فلم يفزعه ـ رغم انزعاج أمه والحاضرين الذين أسرعوا يريدون أخذ الصبى من حِجر النبىﷺ ـ وتركه حتى قضى بوله ثم أمر بماء فصبه على الثوب متتبعًا أثار البول ولم يغسله ضاربًا المثل فى الرحمة بالإنسان والبعد عن التكلف والتنطع[2] .

(١) انظر الأحاديث ١٩٠ ، ٣٥٤٠ ، ٣٥٤١ ، ٥٦٧٠ ، ٦٣٥٢ فى المصدر السابق .
(٢) انظر الأحاديث ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٥٤٦٨ ، ٥٦٩٣ ، ٦٠٠٢ ، ٦٣٥٥ .

(د) باب الإنسان المحب للأطفال

كانت "أم خالد"[1] ، صبية صغيرة عندما جاءت مع أبيها وأهلها إلى المدينة المنورة قادمة من أرض الحبشة فى أوائل العام الهجرى السابع بعد غزوة خيبر .

وبدا فى الأفق القريب أن شمس التمكين للإسلام فى أرض الله بجزيرة العرب قد لاح نورها ، إذ أوشك أن يغيب نفوذ اليهود ، كما ضاعت هيبة قريش بعد غزوة الخندق إذ فشلت أكبر حملة عسكرية استطاعت قريش أن تحشدها وتجمع لها السلاح والعتاد والجنود من كل القبائل العربية التى تحالفت معها من أجل استئصال شأفة الإسلام وإبادة المسلمين .

ولذلك سارع من بقى من المسلمين المهاجرين فى الحبشة إلى الرحيل والعودة من المنفى إلى أرض الوطن حيث أخذوا يتوافدون على المدينة المنورة ليتمتعوا بالحياة فى كنف النبى ﷺ الذى أحبهم وأحبوه.

عندما تذكرت "أم خالد" هذه الرحلة بعد سنوات طويلة قالت " قدمت من أرض الحبشة وأنا جويرية"[1] .

---

(١) سميت أم خالد لأنها تزوجت ــ فيما بعد قدومها مع أبيها إلى المدينة المنورة بسنوات طويلة ــ من الزبير بن العوام وأنجبت له خالد وعمرو .



فى هذه الأثناء أُتىَ النبى ﷺ بثياب كثيرة فأخذ يوزعها على أصحابه معطيًا كل واحد منهم ما يليق به ويروق له . ثم وجد خَميصة سوداء صغيرة مزينة بأعلام صفراء ذهبية اللون . كان ثوبًا رائعًا يليق بصبية جميلة فقال رسول الله ﷺ : **[من ترون أن نكسو هذه الخميصة]**(٢).

فسكت القوم إذ لم يجدوا من تليق به هذه الخميصة البديعة .

وتذكر النبى ﷺ الوافدين من أرض الحبشة وتخايلت لعينيه بنت "خالد بن سعيد" فقال ﷺ :**[أئتونى ببنت خالد]** وذهب من يأتى بها فجاءت ــ يحملها أبوها ــ وعليها قميص أصفر(٣)فتناولها منه النبى ﷺ ، وأقامها فى حِجره وأخذ الخميصة وألبسها الطفلة بيده وقَرَّبَ وجهه ﷺ منها وابتسم فى وجهها وجعل يمسح بيده الأعلام الملونة التى تزين الثوب وهو يقول لها بالحبشية **[سنه سنه]** يعنى "حسن .. حسن" أو "جميل .. جميل" .

وأحست الطفلة الصغيرة بأمن عميق وطمأنينة وأنس وهى فى حضن النبى ﷺ فعانقته تعبيرًا عفويًا عن حب فطرى . أحاطت عنقه الفضى المشرق بذراعيها الصغيرتين البضتين فلمست أصابعها الرقيقة كرة

---

(١) الحديث رقم ٣٨٧٤ فى "فتح البارى بشرح صحيح البخارى "، الجزء الخامس عشر، كتاب المبعث النبوى، ص ٣٥ .

"**جويرية**" : تصغير جارية والجارية هى الفتاة الشابة صغيرة السن ، ومن ثم فالجويرية هى الطفلة أو الصبية الصغيرة التى تعقل وتميز ولكنها لم تبلغ الحلم .

(٢) الحديث رقم ٥٨٢٣ ، والحديث رقم ٥٨٤٥ فى المصدر السابق .

(٣) الحديث رقم ٥٩٩٣ ، والحدث رقم ٣٠٧١ فى المصدر السابق .

صغيرة من اللحم تبرز فى ظهره عند كتفه الأيسرﷺ كأنها بيضة حمامة فأخذت ببراءة الطفولة تعبث بها .

تقول أم خالد – بعد سنوات طويلة – عندما تتذكر هذه اللحظة المدهشة المفعمة بالحنان "**فذهبت ألعب بخاتم النبوة**"[1] .

ورأى أبوها "خالد بن سعيد" أن فى صنيعها هذا جرأة على مقام الرسول ﷺ وإستهانة بمهابة النبوة، فزجرها ومد يده ليمنعها من العبث ويأخذها فقال له النبى (ﷺ) : **[دعها]** أى أتركها تلعب كما تهوى . ثم قال لها رسول الله (ﷺ) : **[أبلِى واخلفى ثم أبلِى وأخلفى ثم أبلِى وأخلفى]**[2] يدعو لها بطول العمر.

---

(١) الحديث رقم ٣٠٧١، والحديث رقم ٥٩٩٣ فى المصدر السابق .

(٢) انظر شرح الأحاديث أرقام ٥٨٢٣ ، ٥٨٤٥ ، ٥٩٩٣ ، ٣٠٧١ فى المصدر السابق، وقد وقع تصحيح فى أكثر روايات الحديث، فذكر بلفظ [بلى وأخلقى] (بالقاف بدلاً من الفاء) من الإخلاق الذى يعنى تمزيق الثياب وترقيعها بعد إبلائها .



(هـ) باب راعى الأيتام

ولد النبى ﷺ يتيمًا، إذ مات أبوه مسافراً فى يثرب ــ التى صارت بعد الهجرة المدينة المنورة ــ بينما كان النبى جنينا فى رحم أمه . ثم فقد أمه فى فاجعة مروعة لقلب طفل صغير يناهز الخامسة من عمره إذ ماتت بين يديه وهما عائدان من زيارة قبر أبيه . لفظت نَفَسَها الأخير فى الطريق عند قرية الأبواب حيث دفنت هناك . وكما مات أبوه شابًا قويًا مملوءً بالعافية والطموح على غير توقع ولا انتظار ، كذلك ماتت أمه شابة صغيرة رائعة الجمال . وعاد "محمد" الطفل وحيدًا ــ تماماً ــ بلا أم ولا أب ولم يكن معه ــ حينذاك ــ إلا فتاة صغيرة كانت جارية تعمل خادمة لأمه الراحلة اسمها أم أيمن .

ودُفِعَ به إلى جده "عبد المطلب" ؛ زعيم قريش وسيد مكة فأسبغ عليه حنانه ورحمته، ولكنه سرعان ما غاب فى رحلة الموت تاركًا حفيده فى كفالة عمه أبى طالب كثير العيال؛ حيث ذاق الطفل محمد ﷺ شظف العيش فوق مرارة اليُتيم .

وأراد الله ــ سبحانه وتعالى ــ له أن يعانى كثيراً من تجربة الموت وفقد الأبناء والأحفاد .

مات ابنه البكر "القاسم" ــ الذى منحه كنيته فى قومه حيث كان ينادى "يا أبا القاسم" ــ بعد أن بلغ معه السعى .

ثم مات ابنه الطاهر أو الطيب صبيًا صغيرًا . وشهد ﷺ موت بناته بعد أن كبرن وصرن أمهات وصار هو ﷺ نبيًا رسولاً . ماتت "رقية" وهو يحارب فى معركة "بدر" الكبرى فى شهر رمضان من العام الثانى بعد الهجرة . ثم ماتت "أم كلثوم" وتبعتها كبرى بناته "زينب" .

ومات بين يديه بعض أحفاده وشوهد ﷺ فى مكة والمدينة ، قبل النبوة وبعدها باكيًا عند القبور يعانى فراق الأحباب من الأهل والأبناء والأحفاد .

وربما كان موت "إبراهيم" آخر أبنائه فى العام الأخير من حياته على هذه الأرض ﷺ من أشد لحظات عمره حزناً .

وفلم يكن النبى ﷺ من شدة حبه لابنه إبراهيم يطيق الصبر عنه مدة طويلة، ولذلك كان كثيرًا ما يذهب إليه فى بيت مرضعته مع جمع من أصحابه ليلقى نظرة عليه ويشمه ويقبله .

ويصف أنس بن مالك إحدى هذه الزيارات الخاطفة فيقول : **"انطلق رسول الله ﷺ ـ ذات يوم ـ فاتبعته" وكان ذلك فى جمع من أصحاب النبى ﷺ " فانتهى إلى أبى سيف وهو ينفخ بكيره وقد امتلأ البيت دخاناً فأسرعت المشى بين يدى رسول الله ﷺ ـ يعنى تقدمه ليهيئ له الطريق ـ فقلت : يا أبا سيف : أمسك ـ يعنى كف عن النفخ فى الكير ـ جاء رسول الله ﷺ .**

يقول أنس : **"دخلنا مع رسول الله ﷺ فأخذ إبراهيم فقبله وشمه" .**

لقد تكررت تلك الزيارات، ولذلك يقول أنس بن مالك ﷺ : **"ما رأيت أحدًا أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ .**



حتى كان اليوم الذى قُبض فيه إبراهيم . فى صباح ذلك اليوم أحس النبى ﷺ بوحشة الفراق فأخذ طريقه فى جمع من أصحابه إلى بيت أبى سيف الحداد .

يقول أنس ﷺ : "**دخلنا وإبراهيم يجود بنفسه**" .كان الصبى المسكين يتألم فى صمت . يفتح فمه كمن يقئ وتصدر من صدره حشرجة من يموت "**فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان**" .

فقال عبد الرحمن بن عوف : وأنت يا رسول الله تبكى ؟! أو لم تنه عن البكاء ؟!"

فغالب رسول الله ﷺ بكاءه ثم قال :[**إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت عند نعمة : لهو و لعب ومزامير الشيطان وصوت عند مصيبة : خمش وجوه ، وشق جيوب ، ورنة شيطان**] (١) .

"**أنهى الناس عن النياحة ؛ أن يندب الرجل بما ليس فيه]**

قوله ﷺ : [**خمش وجوه**] يعنى لطم الوجوه بالأيدى ، كما تفعل النساء عند الموت تعبيرًا بل "إعلانًا" عن شدة حزنهن على من فارق الحياة .

وقوله "**ورنة شيطان**" يعنى الصراخ والولولة .

قوله ﷺ : [**أن يندب الرجل بما ليس فيه**] نهى عن أن يتحول التعبير عن الحزن عند الموت إلى مناسبة للتفاخر الدنيوى كما يحدث عند أكثر الناس الذين يغفلون عن حكمة الموت .

ثم نظر إلى الجسد الملقى ساكنًا بلا حراك مستسلماً لأمر الله ففاضت عيناه مرة أخرى وتطلعت إلى وجهه الباكى الأعين متسائلة عن "سر" هذه الدموع فقال ﷺ : [**إنما أنا بشر . إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون . ولولا أنه أمر حق ووعد صدق وسبيل نأتيه ، وإن آخرنا سيلحق بأولنا لحزنا عليك يا إبراهيم حزناً هو أشد من هذا . إنها رحمة ومن لا يرحم لا يرحم**][1] .

وأقيمت صلاة الجنازة على روح "إبراهيم" يقودها النبى ﷺ وسار الموكب الحزين إلى المقابر بالبقيع حيث توارى الجسد الغض الصغير وراء التراب وقال الأب الحزين ﷺ : [**هل من أحد يأتى بقربة ماء**] فأسرع رجل من الأنصار فأتى بقربة ماء فرشًها رسول الله ﷺ على قبر ابنه . وفى طريق العودة . قال ﷺ : [**إن إبراهيم ابنى مات فى الثدى وإن له مُرضعًا فى الجنة**] [2] .

---

(١) جمعنا فى هذا السياق كل الروايات الواردة فى هذا الحديث معتمدين على ما جاء فى شرح الأحاديث أرقام ١٣٠٣ ، ١٣٨٢ ، ٦٩١٥ فى كتاب " فتح البارى بشرح صحيح البخارى " .

(٢) يعنى تكمل رضاعه فى الجنة ، كما ورد فى إحدى روايات الحديث التى تقول : [**وإن له لظئرين (مرضعين) تكملان رضاعة فى الجنة**] .



وبينما كان النبى ﷺ سائرًا مع أصحابه فى طريق العودة من القبور إذ أظلمت المدينة على حين فجأة، كأن الليل قد هبط قبل أوانه ونظروا فزعين إلى السماء فإذا بالشمس تصير قرصاً أسود محاطاً بهالة متألقة لا يستطاع التحديق فيها ، لقد كسفت الشمس ، فقال الناس : إن الشمس قد كسفت حزناً على موت إبراهيم ، فقال النبى الحكيم ﷺ : **[إن الشمس والقمر من آيات الله لا ينكسفان لموت أحدٍ ولا لحياته]** (١) .

من قلب محنة اليتم تفجر ينبوع الرحمة من قلب النبى محمد ﷺ الذى خاطبه ربه بقوله : ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى**﴾ (٢) وأمره بالإحسان إلى اليتيم بقوله : ﴿ **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ** ﴾(٣) .

"**القهر**" : سلب الإرادة أو منع الاختيار .

والآية نهى عن أن يُفرض على اليتيم ما لا يرضى ، فهى إذن أمر بالإحسان والتودد إليه بإعطائه ما يرضى وتوفير ما يحب .

وحث رسول الله ﷺ المؤمنين على رعاية اليتيم فقال : **[أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا]** وأشار بإصبعيه (٤) .

---

(١) انظر أحاديث كسوف الشمس فى فتح البارى .

(٢) الضحى: ٦ .

(٣) الضحى :٩ .

(٤) الحديث رقم ٦٠٠٥ فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى .

كتاب تحريم التشدد

(أ) باب الأمر بالتيسير والنهى عن التعسير

أوضح القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أن الصبغة المميزة (المُعَرِّفة) للإسلام هى التيسير على الناس ، وتخفيف الأحكام الدينية عليهم مراعاة لضعفهم البشرى الفطرى وإشاعة لروح التسامح والسلام.

يقول الله ﷻ مبيناً إرادته فى فرض أحكام الشريعة ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾[1] وذلك فى سياق الأمر بصيام شهر رمضان والصيام أمر شديد على النفس الإنسانية إذ يحرمها من شهواتها بعض الوقت مما قد يوهم أن الله جل علاه يريد أن يضيق على عباده حياتهم فأزال هذا الوهم بقوله ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ** ﴾وأكد المعنى بقوله ﴿ **وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾حتى لا يبقى فى القلوب أى ظل من شك فى إرادة التيسير ونفى إرادة التعسير .

ولقد استلهم الرسول ﷺ النص القرآنى عندما أعطى وصيته إلى معاذ بن جبل ، وأبى موسى الأشعرى ﷺ إذ أرسلهما إلى اليمن لدعوة الناس إلى الإسلام ، وتعليمهم أحكام الدين ، والقيام بالحكم والفصل بين الناس فى القضايا .

---

(١)البقرة: ١٨٥. ولتنظر كيف كرر لفظ "يريد" ولفظ "بكم" ليؤكد معنى إرادته (سبحانه وتعالى) التيسير على عباده.



قال ﷺ : [**يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا**][1] فهذه الوصايا النبوية الشريفة موجهة إلى كل من يتولى مناصب الحكم والسلطة السياسية والقضاء والدعوة (الإعلام) وهى ــ إذن ــ موجهة إلى كل صاحب رأى أو قرار يخاطب أو يواجه جمهور الناس ، وإنها ــ بالقطع ــ ليست خاصة بالصاحبيين ؛ معاذ بن جبل ﷺ وأبى موسى الأشعرى ﷺ ،ولذلك عبر عن هذه الوصايا النبوية العامة بصيغة الجمع فى الحديث النبوى الشريف الذى يقول : [**يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا**][2] .

إن الرسول ﷺ يدعو أولي الأمر والدعاة وأصحاب الرأى إلى تجنب التشديد على الناس ، والتضييق عليهم فى حياتهم حتى لا يغريهم ذلك ــ فى النهاية ــ إلى الخروج على أحكام الدين إذا وجدوا أنها تنغص عليهم معيشتهم وتسبب شقاءهم وتتعارض مع نوازعهم الفطرية التى زرعها الله فى أنفسهم. وقد يدفعهم التشدد إلى التمسك ظاهرًا بالشريعة، بل قد يبالغون فى ذلك التظاهر مع مخالفتها فى الباطن وبذلك يتحولون إلى منافقين .

وكان التيسير خلقاً دائماً لرسول الله ﷺ فقد وصفته امرأته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بأنه (**ما خير بين أمرين الأ اختار أيسرهما ما لم يكن إثما أى حراماً**).

---

(١) انظر تفسير ابن كثير للآية ١٨٥ من سورة البقرة والحديث رقم ٨٠٨٧ فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)

(٢) الحديث رقم ٨٠٨٦ ــ المصدر السابق .

ولقد نفى الله ﷻ أن يتضمن دينه أى تضييق على الناس فى أمور حياتهم الدنيا، فقال منزهًا شريعته السمحاء ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١) .

قال ذلك فى ختام الآية التى تناولت فريضة الوضوء والاغتسال ليبين أن غاية الدين هى تطهير الناس من القذارات الظاهرة والباطنة وليس التضييق عليهم بالتشدد والمبالغة فى التنظيف والاستغراق العميق فى التفاصيل بالتدقيق فى فروض الوضوء والغسل ونوافلهما وآدابهما والأدعية الكثيرة المتعلقة بهما... كل ذلك بدعوى الطهارة ، ولذلك فقد أمر الله بالتيمم عند فقد الماء أو العجز فى استعماله . والتيمم إجراء عملى بسيط يتضمن مجرد مسح الوجه واليدين بتراب طاهر .

فهو تعبير رمزى محسوس عن النية الباطنة فى التطهر والعودة إلى الأصل حيث خلق الإنسان ــ فى البدء ــ من طين ، أى من ماء وتراب فإذا لم يجد الماء ليتوضأ به أو يغتسل فليرجع إلى التراب الذى منه خلق . والأمر بالتيمم بديلاً عن الوضوء أو الغسل إشارة بليغة واضحة الدلالة على أن العبادات ليست غايات مقصودة لذاتها، بل هى وسائل الوصول إلى غاية أعلنت عنها خاتمة الآية بقولها ﴿ **لعلكم تشكرون**﴾" والشكر هو معرفة النعمة والإقرار (الاعتراف) بها تم الثناء (الحمد) على المنعم .

---

(١) المائدة : ٦ .



الشكر هو الغاية وليست العبادات إلا وسائل للوصول إليها فلا ينبغى للعبد المؤمن أن يغرق نفسه فى تفاصيل الوسائل غافلاً قلبه عن الغاية التى من أجلها اتخذت تلك الوسائل .

ولقد أوضح الله ﷻ الأهداف العامة أو الغايات العليا التى تسعى أحكام الشريعة بالناس لبلوغها والتى قد حددت الخصائص المميزة لشريعة الإسلام فى قوله : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾(١) .

قوله ﴿ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ يعنى ليضيئ لكم بوحيه الصراط المستقيم المؤدى إلى الحياة الطيبة فى الدنيا ، وإلى جنته فى الآخرة موضحًا لكم معالم الطريق الذى ينبغى أن تسيروا فيه حتى لا تضلوا .

" وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ" ويرشدكم إلى الطرق المحمودة التى اتخذتها الأمم السابقة التى هداها الله من قبلكم ويُعينكم على الأخذ بها حتى تلحقوا بهم فى مستقر رحمته . وهذا القول الإلهى شفاء للمسلمين من داء التفوق العنصرى أو أكذوبة شعب الله المختار حتى لا يتوهموا ــ كما فعل غيرهم ــ أن رحمة الله حكر عليهم وحدهم .

---

(١) النساء: ٢٦ – ٢٨ .

" وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ " : ويعود إليكم ؛ أى يعيدكم إليه عبادًا طائعين بعد أن يخلصكم من إرادة المعصية؛ فتوبة الله على عبده أن يطهره من إرادة العصيان .

"وَاللَّهُ عَلِيمٌ " بكم وبما يصلحكم "حَكِيمٌ " يضع كل عبد من عباده فى الابتلاء المناسب له لكى يكتشف الحقيقة بنفسه .

﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا﴾ : ويريد الذين يسيرون وراء ما تشتهى أنفسهم جاعلين العليا الحصول على اللذة الجسدية بأية وسيلة ومهما كان الثمن ...... يريد هؤلاء الشهوانيون أن تزيغوا عن الصراط المستقيم ــ الذى رسمه الله لكم وبَيَّنَ لكم معالمه بوحيه إلى أنبيائه ــ زيغًا شديدًا يأخذكم فى قبضة شهواتكم ويمنعكم من التوبة إلى الله .

قوله (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ) بيان أن استيلاء قوة الشهوات على نفس الإنسان يعرضه لفتن شديدة ومتاعب جمة لا يستطيع اجتيازها أو تحملها دون أن تتحول حياته إلى ألم وشقاء رغم أن هدفه هو البحث الدائم عن اللذة والسعادة ثم ينتهى به المصير إلى جهنم حيث العذاب الدائم والشقاء الأبدى . ولذلك فإن دعوة الله للإنسان إلى أن يسيطر على شهواته بوضعها تحت سلطان الشريعة إنما هى ــ فى الحقيقة ــ تخفيف على الإنسان من متاعب الطريق الوعر الملئ بالأشواك والعثرات التى لابد أن يكابدها بمقتضى الحكمة الآلهية إذا سار متبعًا شهواته متحررًا من أحكام الشريعة هاربًا من مقتضى العقل.



"**الضعف**" هو الفجوة بين الرغبة أو الشهوة والقدرة ، فالضعيف هـو العاجز عن الحصول على ما يشتهى ، أو إيجاد ما يريـد . وكلمـا زادت وتكاثرت شهوات الإنسان كلما تجلى ضعفه إذ تقل قدرته علـى تحـصيل ما يشتهى. وهذا هو المقصود من قوله ﷻ : ﴿ **وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا** ﴾ .

وعندما يعلن الخالق ﷻ عن ضعف مخلوقه فإن الضعف الإنـسانى يصبح حقيقة لآمراء فيها، ويصبح جوهر التيسير أن يراعى التشريع حقيقة الضعف البشرى حتى لا يفرض على الناس ما لا يستطيعون القيـام بـه. وهو الأمر الذى أفاض القرآن فى بيان أن الله ﷻ قد رعـاه فـى أحكـام الإسلام.

ولنضرب على هذا بعض الأمثال . عندما أذن الله للمؤمنين بالقتـال دفاعًا عن أنفسهم فإنه أوجب عليهم أن يقاتلوا إذا كان عددهم عُشْر عـدد الكافرين ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَـى الْقِتَـالِ إِنْ يَكُـنْ مِـنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ**﴾[1] .

عندما تلا النبى ﷺ ما أنزل عليه من سورة الأنفال ـ عقب غـزوة بدر الكبرىـ وانتهى إلى هذه الآية بدا على وجوه الصحابة (رضوان الله عليهم) جميعًا الإشفاق من شدة هذا التكليف الإلهى الشاق . كيـف يقاتـل الواحد منهم عشرة من الكافرين ؟!

---

(١) الأنفال: ٦٥ .

وعلى الفور أخذ الوحيُ النبيَ ﷺ ثم سرى عنه فتلا عليهم قول الله ﷻ ﴿ **الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾(١) خفف الأمر الإلهى بعد أن تبين المؤمنون ضعف أنفسهم فصار التكليف أن يقاتل المؤمنون الكافرين إذا بلغ عددهم نصف عدد الكافرين ولا عذر لهم فى القعود عن القتال إلا إذا كانوا أقل من نصف عدد الأعداء ووعدهم بالنصر والغلبة إذا تحلوا بالصبر .

إذن لقد خفف الله التكليف ــ وهو القادر على كل شىء وكان بمقدوره أن يفرض على خلقه ما يشاء ــ مراعاة للضعف الإنسانى .

و يقول الله ﷻ : ﴿ **ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ**﴾(٢) .

ذَلِكَ : إشارة إلى حكم الدية بدلاً من القصاص .

هكذا تتضافر الآيات القرآنية من أجل بيان أن التيسير هو صبغة شريعه الإسلام وتعلن هذه الحقيقة حتى فى سياق الأمر بالجهاد . يقول الله ﷻ : ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا**

---

(١) الأنفال:٦٦ . قوله "**علم أن فيكم ضعفًا**" يعنى بين لكم أن فيكم ضعفًا؛ أى جعلكم تتبينون أن فى أنفسكم ضعفًا، وكان هذا العلم الذى اكتسبوه تحقيقًا للعلم الإلهى القديم فكان علمهم المكتسب بمثابة تأكيد للعلم الإلهى القديم ، لذلك نسب العلم إلى نفسه فقال "علم" مشيرًا بذلك إلى أن علم المخلوقات ليس إلا صورة أو ظلاً لعلم الله وان الخالق ﷻ قد جعل من الخلق وسائل لتحقيق علمه القديم .

(٢) البقرة : ١٧٨ .



لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(1).

قوله : ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ : هو اصطفاكم من بين خلقه وشرفكم بحمل رسالته بمحض فضله عليكم دون سابق جهد منكم ، فالباعث على اصطفائكم محض رحمته بكم. ولذلك فمن المحال أن تتضمن الشريعة التى أمركم بحملها أى تشدد عليكم ؛ لأنها صدرت عن رحمة الله بعباده فكيف يمكن أن يكون الدين سببًا فى التضييق علي العباد ولم ينزل إلا رحمة بهم ولذلك نفى أن يتضمن الدين أى حرج على الناس وعطف هذا النفى على الاجتباء قائلاً: ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ووصف الدين بأنه ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ يعنى طريقة أبيكم إبراهيم أبى الأنبياء فى ممارسة الحياة ولذلك قال النبى ﷺ : "**بعثت بالحنيفية السمحة** " .

فلننظر كيف اختار ـ هنا ـ من صفات أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام صفة الأب الرحيم الرؤوف بأبنائه الحريص على سعادتهم وراحتهم وتجنب التضييق عليهم، ثم أكد حقيقة الاصطفاء الآلهى للأمة الإسلامية بقوله ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا ﴾ "مِنْ قَبْلُ " : فى كتب الأنبياء السابقين " وَفِي هَذَا " : يشير إلى القرآن .

---

(1) الحج : ٧٨١ .

الجهاد :بذل الجهد فى القضاء على أعداء الله ، أى بذل ما فى الوسع من أجل إفناء كل من يحارب الحقيقة ويعمل على إخفائها لأن الله ﷻ هو الحقيقة المطلقة .

والمقصود أنه ﷻ هو الذى اختاركم بمحض رحمته وأعلن عن رسالة أمتكم على لسان الآنبياء السابقين، وفى هذا القرآن وأعطاكم هويتكم إذ سماكم﴿ **الْمُسْلِمِينَ** ﴾؛ الذى أسلموا أنفسهم لإرادة الله الظاهرة فى شريعته.

وإزاء هذا الفضل الإلهى الكبير ، يجب عليكم شكره بأن تجاهدوا من أجل الله الجهاد الحق (الجدير به) لكى تصبحوا أهلاً لأن يكون الرسول الأعظم ﷺ "**شهيدًا**" : دليلاً **عليكم** : يقودكم ، **وتكونوا** أنتم **شهداء**: أدلة "**على الناس**" : بقية الأمم تقودونهم فى الطريق إلى الله ﴿ **فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾ .

بالدين السمح السهل الذى لا حرج فيه يحق للمسلمين أن يقودوا الأمم . وإذا كان نزول الدين من عند الله واجتباء المسلمين للقيام به والدعوة إليه فى الناس محض رحمة من الله فالواجب على الدعاة وأصحاب الرأى أن يُغَلِّبُوا التبشير على الإنذار والتخويف . قال رسول الله ﷺ **[وبشروا ولا تنفروا]** .

" **بشروا**": حدثوا الناس عن رحمة الله الواسعة التى شملت كل شئ وأنها قريبة المنال وحثوهم على العمل للظفر بها. "**ولا تنفروا**": ولا تبالغوا فى الإنذار والتخويف من عذاب الله لأن ذلك يفضى إلى تنفير الناس من رحمة الله وإبعادهم عن خالقهم؛ إذ يتوهمون أنه ﷻ إله قاس شديد الميل إلى البطش بمخالفيه على خلاف الحقيقة،لأنه ﷻ الرحمن الرحيم .

وإذا تأملنا فى سيرة النبى ﷺ وأسلوبه فى الدعوة وجدنا أنه ﷺ كان المثل الأعلى الذى ينبغى الامتثال به فى التبشير وتجنب التنفير ويكفى أن



نطالع بعض الأحاديث النبوية الشريفة التى تبرهن على هذه الحقيقة دون توسع أو تفصيل يضيق عنه المقام .قال رسول الله ﷺ :

(١) **[أتانى جبريل ، فقال : بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، فقلتُ رسول الله : يا جبريل وإن سرق وإن زنى فقال (جبريل) : نعم]** .

وعندما بشر رسول الله ﷺ أصحابه بما قال جبريل تساءل أبو ذر الغفارى ﷺ مندهشاً : يا رسول الله وإن سرق وإن زنى .

فقال رسول الله ﷺ : **نعم** .

فقال أبو ذر ﷺ مرة أخرى "وإن سرق وإن زنى" .

فقال رسول الله ﷺ : **[نعم وإن شرب الخمر]**[1] وفى رواية قال مازحاً **[رغم أنف أبى ذر]** .

(٢) **[أبشروا وبشروا من وراءكم أنه من شهد أن لا إله إلا الله صادقاً بها دخل الجنة]** [2] .

(٣) **[أبشروا ، فإن هذا القرآن طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم ، فتمسكوا به ، فإنكم لن تهلكوا ، ولن تضلوا بعده أبدًا]**[3] .

(٤) **[أبشروا، إن من نعمة الله عليكم أنه ليس أحد من الناس يصلى هذه الساعة غيركم]**[1] .

---

(١) راجع نص الحديثين من رقم ٦٤ ، ٦٦ من صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) .

(٢) حديث رقم ٣٥ فى المصدر السابق .

(٣) حديث رقم ٣٤ فى المصدر السابق.

(٥) **[أبشروا هذا ربكم قد فتح بابًا من أبواب السماء يباهى بكم الملائكة يقول: انظروا إلى عبادى قد قضوا فريضة. وهم ينتظرون أخرى]**[٢] .

(٦) وعندما ذهب إلى رجل قد أصابه حرق قال ﷺ **[أبشر ، فإن الله تعالى يقول : هى نارى أسلطها على عبدى المؤمن ، لتكون حظه من النار يوم القيامة]**[٣] .

(٧) وعندما ذهب إلى امرأة قد أصابتها حمى شديدة قال ﷺ لها: **[أبشرى يا أم العلا، فإن مرض المسلم يذهب خطاياه كما تذهب النار خبث الحديد]**[٤] .

ويكفى أن نقول أن رسول الله ﷺ وصف الله ﷻ فى حديث صحيح بأنه أرحم من الأم الوالدة بولدها وذلك حين رأى امرأة من سبى قبيلة هوزان، فور انتهاء معركة "حنين" إذ تاه منها ولدها الرضيع فأخذت المسكينة تعطى ثديها لكل صبى صغير تجده فى السبى، وهى تبحث عن طفلها الضائع فلما أبصرته "**أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته**" ولفت النبى أنظار أصحابه إلى هذه المرأة وقال لهم: **[أترون هذه طارحة ولدها فى النار؟]**.

قالوا: لا وهى تقدر على أن لا تطرحه، يقصدون محال أن

---

(١) حديث رقم ٣٣ فى المصدر السابق .

(٢) حديث رقم ٣٦ فى المصدر السابق .

(٣) حديث رقم ٣٢ فى المصدر السابق .

(٤) حديث رقم ٣٧ فى المصدر السابق .



تلقى أم بولدها الرضيع فى النار وهى مختارة .

فقال ﷺ: **[والله أرحم بعباده من هذه بولدها]**[١] .

وأنه ﷺ يفرح بتوبة عبده المؤمن أشد من فرح الرجل الذى وجد ناقته وعليها زاده ومتاعه بعد أن كانت قد ضلت عنه .

جاء أعرابى إلى مسجد رسول الله ﷺ فقام يصلى مع أصحاب النبى ﷺ وقال الأعرابى ــ وهو فى الصلاة ــ يدعو الله بصوت عالٍ : "اللهم أرحمنى ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا" .

فلما سلم النبى ﷺ منصرفًا من الصلاة وجه خطابه إلى الأعرابى قائلاً : "**لقد حجرت واسعًا**"[٢] .

ولم يلبث الأعرابى أن تنحى فى ناحية من المسجد وأخذ يبول وبوغت أصحاب النبى ﷺ بهذا الفعل القبيح الفاضح فى مسجد رسول الله ﷺ فثاروا وقاموا مسرعين إلى الأعرابى ينتهرونه ويزجرونه وهم يصيحون به غاضبين "مه مه" وحاول بعضهم ضربه وطرده خارج المسجد فقال لهم الرسول ﷺ : **[دعوه . دعوه . لا تزرموه فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين]** [٣] فانصاعوا إلى أمر النبى ﷺ وتركوا الرجل حتى فرغ من بوله وهو ينظر إليهم فى فزع وحيرة تدور عيناه لا يعرف ما الذى أغضبهم ؟! فقال رسول الله ﷺ : **[أريقوا على بوله سجلاً من ماء]**[٤] . **[علموا ويسروا ولا تعسروا]** . ثم قام إلى الرجل فلم

---

(١) الحديث رقم ٥٩٩٩ فى كتاب "فتح البارى بشرح صحيح البخارى" .

(٢) يعنى لقد ضيقت رحمة الله التى وسعت كل شئ .

(٣) لا تزرموه: لا تقطعوا بوله .

(٤) يعنى صبوا ماء من دلوا عظيمة واسعة .

يؤنبه ولم يسبه بل قال له معلماً : **[إن هذه المساجد لا تصلح لشىء من هذا البول والقذر، إنما هى لذكر الله تعالى والصلاة وقراءة القرآن]**[1] .

إذا تأملنا فى هذه الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة ومثلها كثير جدًا، ثم نظرنا إلى الدعاة اليوم فى المساجد ووسائل الإعلام ـ حيث يمتلئ حديثهم بالتخويف والتهديد بالويل والثبور وعظائم الأمور ـ علمنا كم ابتعد دعاة الإسلام وأصحاب الرأى عن منهج رسول الله ﷺ فى الدعوة إلى الله .

ولا شك فى أن من مظاهر التشدد تشبث كل صاحب رأى برأيه فى القضايا الخلافية التى تحتمل أكثر من رأى وتختلف وجهة الأنظار إليها ويؤدى هذا التشبث إلى التفرق والنزاع الذى يهدد وحدة الأمة ويصيب عامة الناس بالتحير الذى قد يفضى بهم إلى الضلال ولذلك حذر رسول الله ﷺ صاحبيه معاذ بن جبل، وأبا موسى الأشعرى وهو يعطيهما وصاياه عندما بعثهما إلى اليمن بقوله **[تطاوعًا ولا تختلفا]** .

"**تطاوعًا**" : ليبذل كل منكما جهده فى طاعة صاحبه ، فلا يتشبث برأيه ،بل يجتهد فى الوصول إلى حل وسط ، أى مواضع اتفاق مع صاحبه متنازلاً عن بعض رأيه فيما لا دليل قاطع عليه يحسم النزاع **[ولا تختلفا]** .

ويسوقنا هذا الحديث النبوى الشريف إلى تناول مظاهر التشدد التى تفضى بالأمة إلى التفرق والنزاع ..

---

(١) انظر شرح الأحاديث ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٦٠١٠ ، ٦٠٢٥ ، ٦١٢٨ فى كتاب "فتح البارى بشرح صحيح البخارى" وص ٢٢ فى الجزء السابع من كتاب "سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد" .



(ب) باب النهى عن الغلو والتكلف

يتخذ التشدد عدة صور ، أو يتضمن عدة معان وقد نهى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة عن جميعها . ومن هذه الصور أو المعانى :

(١) المغالاة أو المبالغة فى أداء الفروض :

هنا يغفل المتشدد عن حقيقة أن الله ﷻ لا يكلف الإنسان إلا ما يقدر على أدائه بموجب العدل الإلهى الذى عبرت عنه الآية القرآنية الكريمة **﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾** وعن حقيقة الضعف الإنسانى التى أعلنها الخالق ﷻ بقوله" **﴿ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾** والضعف يقتضى الخطأ و التقصير والنسيان ، وقد وضعه الله فى طبيعة الإنسان وصبغ به كيانه من أجل غاية عليا هى طلب التطهر من الكبرياء والتحقق من الافتقار إلى الخالق وطلب المغفرة والعون منه ﷻ وهذه هى حقيقة العبادة التى من أجلها خُلِقَ الإنسان لكى يعرف الله من خلالها .

كما يتغافل المتشدد عن روح التيسير السارى فى جميع أحكام الفرائض ويفهم على نحو خاطئ مقولة " الأجر على قدر المشقة " فيجعل من المشقة غاية أو هدفاً مطلوبًا لذاته، متوهمًا أنه كلما شق على نفسه كلما زاد أجره ، فيحول العبادة إلى عمل شاق يصيب الإنسان بالتعب والضجر والملل، وتصير العبادة عملاً منفرًا يبعد الإنسان عن الله، على العكس تمامًا من الغاية المنشودة من العبادة؛ ولذلك اشتد نهى الرسول ﷺ عن هذه الصورة من صور التشدد التى تتخذ هيئة العبادة ولكنها تفضى إلى نقيضها.

بالغ معاذ بن جبل ﷺ فى إطالة الصلاة المفروضة عندما صلى بالناس إمامًا فقرأ السور الطوال من القرآن فشقت الصلاة على الناس فشكوا ذلك إلى رسول الله (ﷺ) فنهاه ونهره قائلاً : **[أتريد أن تكون فتانًا يا معاذ ؟! إذا صليت بالناس فأقرأ بـ ﴿الشمس وضحاها﴾ ، و﴿سبح إسم ربك الأعلى﴾، و﴿الليل إذا يغشى﴾ ، و﴿أقرأ باسم ربك﴾]**[1] يقصد قصار السور حتى لا تطول الصلاة وتشق على أغلب الناس، ثم أعطى القانون العام للإمام فى صلاة الجماعة فقال ﷺ : **[إذا صلى أحدكم بالناس، فليخفف، فإن فيهم الضعيف، والسقيم والكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء]**[2] .

"**فتانًا** " : سببًا لكثير من الفتن . والفتنة هى الابتلاء (الامتحان) الشديد الذى يتعرض له إيمان الإنسان . والحديث النبوى الشريف يوجه من يؤم الناس فى الصلاة ، ومن يقود الناس بصفة عامة إلى الانتباه إلى حقيقة اختلاف البشر فى شتى أحوال الحياة الدنيا مثل قوة الجسد ، والصحة ، والعمر.. وأنهم لذلك درجات تتفاوت رغباتهم وقدراتهم على العبادة مثل أى نشاط إنسانى آخر، وبالتالى فمن المحال جمعهم فى قالب واحد أو على نمط واحد وعلى من يقود الجماعة أن يراعى أحوال الغالبية العظمى أو السواد الأعظم منهم وأن يُلْزِمَ الجميع بما يقدر عليه أضعفهم ، أى أن يُلْزِمَ الجميع بالحد الأدنى الذى يستطيعه كل واحد منهم ، وهو أمر يختلف من مجال إلى آخر ومن وقت لآخر ويتطلب اجتهاداً وإرشاداً من الله من

---

(١) الحديث رقم ٩٢ فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) .
(٢) الحديث رقم ٦٥٨ فى المصدر السابق.



أجل أن تنجو سفينة الأمة ولا تغرق فى بحر الفتن . قال رسول الله ﷺ **[لمن يؤم الناس" "صل بصلاة أضعف القوم]** [١] ثم ضرب رسول الله ﷺ بنفسه المثل فقال :

"إنى لأدخل فى الصلاة ، وأنا أريد أن أطيلها ، فأسمع بكاء الصبى ، فأتجوز فى صلاتى ، مما أعلم من شدة وجد أمه ببكائه "[٢] .

" **فأتجوز**" : فأسرع واختصر .

وإذا كان العبد المؤمن يرغب فى مناجاة ربه ويريد إطالة الصلاة فليكن ذلك فى صلاته الفردية عندما يخلو إلى نفسه ، وإذا كانت **"الصلاة التى وصفت بأنها عماد الدين من أقامها أقام الدين ومن هدمها هدم الدين"** ينبغى عدم التشدد فيها فالنهى عن الغلو فى غيرها من الفروض أولى . لذلك نهى رسول الله ﷺ عن تأخير الإفطار وترك السحور فى مثل قوله **[بكروا أو عجلوا بالإفطار ، وأخروا السحور]**[٣] وقوله **[لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر]**[٤] وقوله **[هلم إلى الغداء المبارك]**[٥] يعنى السحور ؛ لأن من ضلالات بعض المتشددين توهم أن إطالة مدة الصيام وزيادة الجوع تقربهم من الله زلفى .

---

(١) الحديث رقم ٣٧٧٣ فى المصدر السابق .

(٢) الحديث رقم ٢٤٧٨ فى المصدر السابق .

(٣) الحديث رقم ٢٨٣٥ فى المصدر السابق .

(٤) حديث رقم ١٩٥٧ فى فتح الباب شرح صحيح البخارى .

(٥) الحديث رقم ٧٠٤٣ فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) .

كما نهى عن الإسراف فى الوضوء والاغتسال وسماه اعتداءً فى الطهور، ونهى عن التزيد فى الدعاء وسماه أيضاً اعتداء فقال ﷺ **[إنه سيكون فى هذه الأمة قوم يعتدون فى الطهور والدعاء]**[1] قال ﷺ ذلك إنباء بالغيب وتحذيرًا ولقد تحقق ما حذر منه رسول الله ﷺ فترى كثيرًا من الناس يبالغون فى التطهر بدافع من الوسوسة كما لو كان لديهم إحساسًا عميقًا بالقذارة ، وترى آخرين على المنابر، وفى وسائل الإعلام يستكثرون من الأدعية الطويلة المسهبة التى ينمقون ألفاظها ويزخرفونها ويتصنعون (يتكلفون) فيها كما لو كانوا يلقون قصيدة شعر أو خطبة رنانة أو محاضرة متقعرة فى إحدى المؤتمرات أو المهرجانات متناسين أن الدعاء وقوف خاشع متضرع على باب الله بطلب النجاة .

(٢) التعالى على الرخص وأهل الأعذار

شرع الله البر الرحيم لعباده المؤمنين الكثير من الرخص التى تخفف عنهم مشقة أداء الفروض فى بعض الأحوال تعبيرًا عن إرادة التيسير مثل التيمم، والمسح على الجبائر وجمع الصلاة وتقصيرها والإفطار عند المرض أو السفر وغيرها من مظاهر التخفيف ، ولكن المتشدد مدعى الورع والتقرب إلى الله يستنكف أن يلجأ إلى هذه الرخص وينزه نفسه عن مقارفتها كما لو كانت لا تليق بمقامه العالى عند الله وتراه لذلك يستهزأ ــ سرًا أو جهرًا ــ بمن يستعمل الرخص التى أباحها الله لعباده ويعيب عليهم معتبراً أن ذلك دليلاً على قلة الإيمان . وإلى هؤلاء المتشددين قال

---

(١) حديث رقم ٢٣٩٦ فى المصدر السابق .



رسول الله ﷺ : [إن الله تعالى يحب أن تُؤْتَى رخصه ، كما يحب أن تُؤْتَى عزائمه كما يكره أن تؤتى معصيته][1] .

يبين ﷺ أن الثواب (الأجر) على الرخصة يساوى الأجر على العزيمة ، لإنهما متساويان فى حب الله لمن يأتى بأحدهما دون فرق ، ومن ثم فلا جناح على من يأتى الرخصة، ولا يحق ـ بالتالى ـ للمتشددين أن يعيبوا على أهل الرخص ، ولا أن يتوهموا أنهم الأتقى والأقرب إلى الله .

رأى رسول الله ﷺ رجلاً متعبًا من شدة الحر وقد أخذ أصحابه فى السفر يظللون عليه فسأل ﷺ : **ما هذا ؟**

قالوا : صائم .

فقال : **[ليس من البر الصيام فى السفر]**[2] .

"**البر**" اسم جامع لكل ما يرضى الله ﷻ وعندما يقول الله ﷻ : **﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾**[3] فالمعنى لن تنالوا رضى الله ، أى لن ترتفعوا إلى مقام إرضاء الله إلا إذا بذلتم الأموال التى تشتهونها .

ومعنى الحديث الشريف أنه ليس مما يرضى الله أن يصوم العبد فى السفر رغم ما يعانيه من مشقة كبيرة ، لأن الله البر الرحيم لا يريد أن يشق على عباده .

---

(١) نص يجمع الحديثين الصحيحين رقم ١٨٨٥ ، ١٨٨٦ فى المصدر السابق .

(٢) رواه البخارى ومسلم (متفق عليه) .

(٣) آل عمران: ٩٢ .

وربما كان هذا الذى دفع رسول الله ﷺ وهو فى طريقه إلى فتح مكة إلى الإفطار وأمر الناس بالفطر عندما بلغ موضع "الكديد" على مرحلتين من مكة المكرمة .

يقول أبو الدرداء ﷺ : **[خرجنا مع رسول الله ﷺ فى شهر رمضان فى حر شديد حتى إن كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة]**[١] والمقصود أن جميع الصحابة رضوان الله عليهم أخذوا بالرخصة وأفطروا فى السفر وأقرهم رسول الله ﷺ على ذلك إلا عبد الله بن رواحة ﷺ الذى وجد فى نفسه قوة احتمال فصام فى السفر رغم الحر الشديد .

(٣) تكلف النوافل

فتح الله ﷻ الباب واسعًا أمام المؤمنين للتقرب إليه عبر العبادات الطوعية التى أعطيت اسم "النوافل" أى الزيادات ؛ لإنها تزيد على الفروض التى أوجبها الله على العباد المؤمنين والتى لا خيار لهم فيها بموجب ميثاق الإيمان الذى قطعوه على أنفسهم . والنوافل عبادات اختيارية يؤديها العبد المؤمن تطوعًا من تلقاء نفسه لرغبة منه فى التقرب إلى الله بباعث من الحب ، ولا عقاب عليه إذا تركها أو قصر فيها؛ ومن ثم تنتفى عنها صفة الإلزام (الإجبار)، ولا ينبغى أن تتسبب فى مشقة منفرة (مكروهة) ولا أن تنغص على الإنسان حياته ولا أن تحول بينه وبين أداء الفروض الواجب عليه القيام بها ؛ لأنها فى هذه الحال تكون قد فقدت

---

(١) متفق عليه .



حقيقتها وضاعت وظيفتها وصارت ـ على عكس المنشود فيها ـ سببًا فى إبعاد الإنسان عن الله .

ولكن المتشددين بسبب قلة علمهم بحقائق الدين وبنوازع أنفسهم وبدافع من العجلة التى تغذيها الرغبة فى التميز أو التفضل على الغير ؛ أى فى كلمة واحدة بدافع من الكبرياء المستترة يعمدون إلى تحويل النوافل إلى فروض يلزمون بها أنفسهم ويشقون بها على أنفسهم وعلى من حولهم من الناس .

ذهب بعض الشباب من الصحابة رضوان الله عليهم فسألوا عن عبادة النبى فى بيته فكأنهم تقالوها؛ أى استصغروها إذ وجدوا أنها أقل مما كانوا يظنون ، وفسروا ذلك بأن الرسول ﷺ لا يحتاج إلى بذل المزيد من الجهد فى العبادة لأن الله ﷻ قد غفر له ذنوبه ، أما هم فعليهم أن يشددوا على أنفسهم ويبذلوا المزيد من الجهد فى النوافل حتى ينالوا المغفرة والثواب من الله . وعزم بعضهم على قيام الليل كله وحرمان نفسه من النوم والراحة وانتوى واحد أن يصوم الأيام كلها ولا يفطر أبدًا ، بينما تعهد آخر بأن يعيش متبتلاً منقطعًا للعبادة ولا يتزوج . وأُخْبِرَ الرسول ﷺ بما قاله هؤلاء الشباب المتدينون المتحمسون فغضب ونهى عن ذلك النهج المتشدد وأعلن عن سنته المقبولة عند الله بقوله **[ما بال أقوام يتنزهون عن الشىء أصنعه؟]** [(1)] **قالوا نصلى الليل ولا ننام ونصوم ولانفطر ولا نتزوج النساء، أما والله إنى لأتقاكم لله، وأعلمكم بالله وأشدكم له خشية ، لكنى**

---

(١) الحديث رقم ٥٥٧٣ فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير" ولننظر متأملين كيف أشار النبى ﷺ إلى الكبرياء المستترة وراء ظاهر التشدد فى العبادة .

أصلى وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى][1] ولنمعن النظر كيف طرد المتشددين من الانتساب إليه" **فمن رغب سنتى**" التى هى الاعتدال والبعد عن التشدد "**فليس منى**" فلا يحق له الانتساب إلىَّ.

فى هذه الصورة من صورة التشدد نجد أن الإنسان يفرض على نفسه ما لم يفرضه الله عليه ، أى أنه يكلف نفسه ما لم يكلفه الله وهذا هو " **التكلف**" الذى نهى الله عنه عندما وصف نبيه ﷺ بأنه ليس من المتكلفين إذ أمره أن يعلن براءته من الانتساب إلى المتكلفين بقوله فى القرآن الكريم **﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾** [2] يعنى أعلن لهم يا أيها النبى أنك لا تطلب منهم أجرًا مقابل إبلاغهم رسالة الله وأنك لا تزيد شيئاً من عندك على ما أرسلك الله به ، فإنك لا تفرض عليهم أراءك ولا تلزمهم باجتهادك وإنما تبلغهم رسالة ربهم إليهم نقية صافية كما أوحاها إليك ﷺ وهذا التزيد الإنسانى على دين الله ـ كما حمله الوحى ـ هو الغلو الذى شدد القرآن فى النهى عنه ؛ لأنه أصل كل ضلال يصيب الإنسان .

يقول الله ﷻ : **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ**

---

(١) راجع نص الأحاديث ١٣٣٥ ، ١٣٣٦ ، ٥٥٧٢ ، ٥٥٧٣ فى المصدر السابق .

(٢) صٓ : ٨٦ .



إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾[1] .

قوله ﴿لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ يعنى لا تزيدوا من عند أنفسكم على ما أوحى الله إليكم فى دينكم الذى حمله إليكم رسل الله.

وقوله ﴿وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ ﴾ يعنى ولا تنسبوا إلى الله إلا الذى قاله وحيًا إلى أنبيائه ورضى بأن ينسبه إلى نفسه أى شهد به.

وكان من عبادات النبى ﷺ الخاصة التى لم يأمر أحدًا من أتباعه بها "الوصال" ؛ وهو الصيام الدائم نهارًا وليلاً دون انقطاع لمدة زمنية قد تكون أيامًا معدودات أو شهرًا كاملاً حسب أحواله مع الله خاصة فى أيام اعتكافه فى العشر الأواخر من رمضان حيث كان يلتقيه جبريل يدارسه القرآن .

وهذه عبادة بالغة الخصوصية لا يعرفها إلا الأنبياء وهى بالقطع ليست موضعًا للإقتداء ولا تؤدى بإرادة الإنسان ولا تجرى على سنن البشرية؛ ومن ثم فلا ينبغى لإنسان أن يحاول تجربتها أو أن يختبر نفسه فيها ؛ لأنه ــ بكل بساطة ووضوح ــ ليس مكلفًا بها . ولكن بعض الصحابة رضوان الله عليهم من الشباب المتحمسين الذين " استهواهم" هذا النمط العجيب من العبادة أرادوا الاقتداء بالرسول الأعظم ﷺ ؛ واقتحام لجة هذه العبادة لاستكشاف المجهول وراءها . فواصلوا محاكاة للنبى ﷺ وشق عليهم الأمر فكادوا لا يستطيعون القيام من شدة الجوع فلما علم النبى

---

(١) النساء : ١٧١ .

بحالهم ، جمعهم ونهاهم قائلاً [**إياكم والوصال ، إياكم والوصال ، إياكم والوصال**] ولكنهم أبوا ، وقالوا إنهم يريدون الوصال قربة إلى الله ؛ فقال ﷺ [**فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر**] أرادا الرسول ﷺ أن يخفف عنهم المشقة ـ رحمة بهم كما تقول السيدة عائشة ﵂ ـ بعض الشيء بوجبة من الطعام يأكلونها فى السحر تعينهم على الوصال ولكنهم أبوا إلا أن يكونوا مثل نبى الله ﷺ فى عبادته؛ فقال واحد منهم: [**إنك تواصل يا رسول الله ؟**] "يعنى فلماذا لا نكون مثلك ؟!! " .

فقال الرسول ﷺ : [**لست كأحد منكم . أيكم فى ذلك مثلى ؟!! إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى**] لكنهم رغم الإعياء البادى عليهم والعسر الذى يعانونه فى حياتهم أبوا إلا أن يواصلوا مثل رسول الله ﷺ وقالوا نريد أن نواصل معك ، فأذن لهم من أجل تأديبهم، فواصل بهم يومين متتاليين فى أخر رمضان وأوشكوا أن يتساقطوا من الإعياء لا يقدرون على عمل شىء ثم رأوا هلال شوال الذى يعلن عن نهاية الصيام فقطع رسول الله ﷺ وصاله وأفطر متناولاً طعامه أمامهم وكانوا هم أشد الناس حاجة إلى قطع الوصال وتناول الطعام وقال لهم رسول الله ﷺ منكرًا عليهم وموبخًا لهم [**لو أخَّر الهلال لزدتكم**] يعنى من الوصال الذى صار لهم بمثابة عقاب على تشددهم ولذلك فسر أبو هريرة ﵁ هذا القول من الرسول ﷺ بأنه قاله كالمنكل بهم أو المنكر لهم . أى اللائم المعاقب ثم قال ﷺ : [**ما بال رجال**



يواصلون ؟ ــ يعنى رغم النهى المشدد عنه ــ "**أما والله لو مد لى الشهر لواصلت وصالاً يدع المتعمقون تعمقهم فاكلفوا من العمل ما تطيقون]** [1]

قوله "**يدع المتعمقون تعمقهم** " يعنى وصالاً يكون كفيلاً بردع المتشددين المتكلفين الذين يلزمون أنفسهم بما لم يأمرهم به الله ولا يطيقونه عن غيهم ويعيدهم إلى الصراط المستقيم الذى أضاءه الوحى الإلهى ومهدت السير عليه السنة النبوية .

ولذلك قال رسول الله ﷺ **[إن هذا الدين متين ، فأوغلوا فيه برفق]** [2]

"**متين**" ثابت الحقائق لا يتغير لأهواء البشر .

قوله "**فأوغلوا فيه**" بيان واضح أن الدين طريق طويل على العبد أن يجتازه، أو هو بحر عميق على العبد أن يخوض غماره فى سفينة أعماله. وهو طريق ملئ بالأشواك والعقبات ومحفوف بالمخاطر وعلى العبد المؤمن أن يتحسس مواضع خطواته قبل أن يضع قدمه حتى لا تصيبه الأشواك الكثيرة أو تحول العقبات بينه وبين الوصول إلى غايته وهى

---

(١) هذه هى قصة النهى عن الوصال كما استخرجناها من عشرات الأحاديث التى تناثرت فى مراجع السنة النبوية فقد أوردها كتاب فتح البارى بشرح صحيح البخارى على سبيل المثال فى الأحاديث رقم ١٩٢٢ ، ١٩٦١ ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ ، ١٩٦٤ ، ١٩٦٥ ، ١٩٦٦، ١٩٦٧ ، ٦٨٥١ ، ٧٢٤١ ، ٧٢٤٢ ، ٧٢٩٩ . كما أورد فيها مسلم عشرة أحاديث فى باب النهى عن الوصال فى كتاب الصيام وجاءت فى حديثين فى صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم ٢٦٨١ ، ٥٥٧٦ .

(٢) حديث رقم ٢٢٤٦ فى المصدر السابق .

رحمة الله ولا سبيل أمامه لذلك إلا بالرفق فى السير ؛ أى التمهل والتجهز لمراحل السفر بالزاد الكافى وهو ما يقتضى التخلى عن العجلة التى تبعث على الاندفاع وإلقاء النفس فى المجاهل .

وهنا يبين لنا رسول الله ﷺ أن العجلة التى تبعث عليها الرغبة فى العلو على الآخرين هى العيب الخلقى الجوهرى الذى يقف وراء مظهر التشدد الدينى وقد شبه الرسول ﷺ هؤلاء المتشددين المتكلفين بالمسافر المتعجل الذى أوغل فى طريق مجهول مفعم بالمخاطر دون أن يحمل معه الزاد الكافى له ولراحلته وكانت النتيجة أن هلك فى الطريق مع الدابة التى تحمله فلا هو استطاع أن يقطع الأرض ليصل إلى هدفه وهى الجنة حيث النعيم المقيم ولا هو أبقى الراحلة التى كانت تحمله وهو ما يعنى أنه لم يسترح فى الدنيا مستمتعًا بنعيمها الزائل فهو شقى الدنيا والآخرة .

[فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرًا أبقى][1] .

المُنْبَتَ : المسافر الذى غادر دياره وترك أهله مبتعدًا، فلا هو يستطيع الوصول إلى غايته ولا الرجوع إلى بيته فهو الهالك فى الطريق؛ لذلك قال رسول الله ﷺ **[هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون]**[2] وهو إخبار عن مصيرهم فى الدنيا وفى الآخرة ودعاء عليهم ، لأنهم يفسدون الدين ويعملون على إضلال الناس وينغصون عليهم حياتهم .

---

(١) ضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) حديث رقم ٢٠٢٢ .

(٢) حديث رقم ٧٠٣٩ فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته"(الفتح الكبير) .



٤-الإكثار من السؤال والجدال :

تقوم الشريعة الإسلامية على قاعدة أساسية هى أن الأصل فى الأشياء الإباحة، والأصل فى الإنسان البراءة .انظر إلى قول الرسول الكريم ﷺ **[كل مولود يولد على الفطرة]**[١] وقوله : **[من حج لله ، فلم يرفث ، ولم يفسق ،رجع كيوم ولدته أمه]**[٢] انظر كيف جعل الإنسان حين ولادته بريئًا من كل ذنب وأن جهد الإنسان فى العبادة إنما يكون من أجل أن يعود إلى حالته الأولى ، وغيرهما من الأحاديث النبوية الكثيرة المعبرة عن هذه القاعدة التى تشكل الأساس الذى تقوم عليه أحكام الشريعة .

فليس فى الإسلام لعنة بشرية موروثة من خطيئة آدم فى الجنة، وليس فيه تفوق سلالة بشرية على أخرى أو سلالة ملعونة منذ نشأتها أو ولادتها .

ولذلك فإن القرآن لا يذكر قائمة بالأشياء المباحة التى أحل الله ﷻ للإنسان الاستمتاع بها ، بل يذكر قائمة بالمحرمات لأن التحريم، هو الاستثناء من قاعدة الحلال . وعلى النقيض من روح الشريعة الإسلامية ونصوصها يقوم التشدد على قاعدة أن الأصل فى الأشياء التحريم وأن الحلال هو الاستثناء من قاعدة الحرام، وأن الأصل فى الإنسان الخطيئة، ولذلك يجب محاصرته بالتحريم من كل جانب حتى لا يقع فى الخطيئة التى تعد الأصل فى سلوكه ؛ ولذلك فإن السؤال الأول الذى يتبادر إلى عقل

---

(١) حديث رقم ٤٥٥٩ فى المرجع السابق .

(٢) حديث رقم ٦١٩٧ فى المرجع السابق .

المتشدد عند عرض أى أمر عليه :هل هو حرام أو لا؟ وترى المتشددين يذهبون فى تضييق ما تركه الله واسعاً حسب كل مذهب ،ويكثرون من السؤال عن الحكم الشرعى (حرام أم حلال) على الأشياء التى سكت الوحى عنها ولم ينص على حكم عليها ؛ لإنهم ينطلقون من قاعدة أن كل الأشياء محرمة إلا ما استثنى ولا يرضون أبدًا أن تبقى كثيرًا من الأشياء حرة متحللة من أى حكم شرعى عليها بالحل أو الحرمة . كل ذلك بدعوى التقوى والورع، بل إنهم حتى فى الأوامر الشرعية الصريحة يحاولون حصر مدلول الألفاظ فى معنى واحد لا يوجد غيره ولا يقبلون سواه ، رغم أن اللغة تعطيها أكثر من معنى ويحاولون صب الطاعة فى قالب واحد أو شكل مخصوص بالغ التحديد لا يرضون بغيره رغم أن الأمر الدينى قد تجرى طاعته على أكثر من وجه وفى عدة صور، لأنهم يرفضون حقيقة التنوع أو ينكرون آية الاختلاف التى أطلق الله ﷻ سلطانها على كل شىء تعبيرًا عن اسمه البديع .

وضرب الله لنا مثلاً على هذا النمط من التشدد المقيت بقصة بنى إسرائيل مع البقرة التى أمرهم الله بذبحها ليقدموها قربانًا إلى الله يفتدون بها أنفسهم بعد وقوعهم فى خطيئة عبادة العجل، ثم تاب عليهم وعفا عنهم و أمرهم بذبح بقرة شكرًا لله على نعمة التوبة والعفو .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾[1] أمر إلهى واضح الدلالة بسيط ميسور الطاعة؛ المطلوب "ذبح بقرة"، والإجابة تتحقق

---

(١) البقرة : ٦٧ .



بذبح أية بقرة لأن لفظ "بقرة" جاء مجردًا مطلقًا دون شروط ولكن المتشددين لا يستقبلون الأمر الإلهى بهذه البساطة . وإنما يبحثون عن الأسباب الخفية الكامنة وراء الأمر، والتفاصيل الدقيقة التى ينبغى أن تتوافر لديهم قبل أن يجيبوا بالطاعة ﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾[1] تساءلوا هل الدافع وراء الأمر استهزاء موسى بهم ؟ هل الباعث هو السخرية منهم ؟ وأسرع موسى عليه الصلاة والسلام ينفى عن نفسه هذا الاتهام الباطل ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [2] لأن من يجعل أوامر الله أو ينسب لله أمرًا على سبيل الاستهزاء لاشك فى جهله. ثم بدأت رحلة المتشددين فى البحث عن صفات البقرة المطلوب ذبحها : ما عمرها ؟ وما حجمها ؟ وما لونها ؟ وماذا يميزها عن غيرها من البقر؟ إنهم يتحدثون عن بقرة واحدة مخصوصة بصفات لا توجد فى غيرها، بينما كان الأمر الإلهى فى البدء يتحدث عن أى بقرة تقدم قربانًا لله شكرًا على نعمة التوبة والعفو .

لقد شددوا على أنفسهم كما قال رسول الله ﷺ فشدد الله عليهم إذ أخذوا يضيقون مجال الاختيار المتاح أمامهم بطلب المزيد من التوضيحات والصفات المحددة، وأخذ الله يعسر عليهم الطاعة بإعطاء المزيد من الشروط التى لا تتوافر فى أية بقرة، فأصبح عليهم أن يبحثوا عن بقرة مخصوصة من العسير جدًا الحصول عليها[3]، والعجيب اللافت للنظر أنه

---

(١) البقرة : ٦٧.

(٢) البقرة : ٦٧.

(٣) انظر البقرة ٦٧ – ٧١ .

عندما طلب بقرة غير مذللة وغير مفيدة إذ هى لا تستعمل فى رى الأرض بل هى عصية تتحرك بعنف واضطراب فتثير الغبار ومن الصعب تسخيرها لأنها قوية بلا عيب وذات لون واحد لا يخالطه غيره (أصفر فاقع).

عندما قدم ﷺ هذه الصفات رضوا وأجابوا موسى **﴿قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾** يعنى قد أطاعوا الأمر بعد كل ذلك الجدال، وأوشكوا ألا يفعلوا ؛ لأنه قد تعسر عليهم إيجاد بقرة بكل هذه الشروط ، ثم أخذوا يتجادلون هل البقرة التى وجدوها تنطبق عليها كل هذه الشروط أم لا ؟!!

ضرب الله لنا هذه القصة مثلاً يبين لنا به صفات المتشددين الذين يدعون التقوى والورع وطلب العلم بينما هم فى الحقيقة يطلبون الرئاسة على الناس بباعث من الكبرياء الباطل، ويماطلون فى طاعة الله الصادقة، ويعسرون على الناس وعلى أنفسهم دين الله فيفسدون أمر الدنيا وأمر الآخرة .

عندما قام رسول الله ﷺ خطيبًا يبلغ الناس أمر الله بحج البيت الحرام عندما فرض الحج بنزول قوله ﷻ فى السنة التاسعة بعد الهجرة **﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾**[1] قال رسول الله ﷺ :

---

(١) آل عمران : ٩٦ـ ٩٧.



[يا أيها الناس أن الله كتب عليكم الحج فحجواً] فاندفع رجل من المسلمين من بنى أسد يقول: أفى كل عام يا رسول الله ؟! فغضب الرسول ﷺ ولم يرد عليه .

" فألح الرجل قائلاً : أفى كل عام يا رسول الله ؟ أفى كل عام يا رسول الله ؟" .

فقال رسول الله ﷺ : **[لا والذى نفسى بيده لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت ما استطعتم وإذن لكفرتم]**[1] **[اتركونى ما تركتم ، فإذا حدثتكم بشىء فخذوه عنى فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم]**[2] وفى رواية أخرى **[ذرونى ما تركتم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه]**[3] أو **[فاجتنبوه]** [4] .

على الإنسان أن ينتظر صدور الأمر الإلهى سواء فى القرآن أو السنة ويتفهم المقصود منه ويعلم المراد ويسارع بطاعته بالفعل أو الاجتناب وهذا هو المعنى الذى احتواه الأمر الإلهى فى القرآن الكريم

---

(١) تفسير ابن كثير للآيتين ١٠١ ، ١٠٢ من سورة المائدة، وفى رواية أخرى **[ولو وجبت ثم تركتم]** ــ يعنى لعدم الاستطاعة ــ **لضللتم** ــ انظر فتح البارى بشرح صحيح البخارى، الجزء ٢٨ ص ٢٧.

(٢) حديث رقم ٩١ فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته " (الفتح الكبير) .

(٣) الحديث رقم ٣٤٣٠ فى المرجع السابق .

(٤) رواه البخارى بلفظ **[دعونى ما تركتم، فإنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم]**.

بقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (١) يعنى لا تبادروا بالأعمال فى ميدان العبادة من تلقاء أنفسكم، ولا بإصدار الأحكام ؛ فلا حكم يجب عليكم إلا بعد ورود الشرع كما نطق به القرآن الكريم أو الرسول ﷺ ، فعليكم دائمًا أن تنتبهوا إلى وقوفكم بين يدى الله ورسوله ، وأن تنتظروا صدور الحكم الشرعى منهما ثم تجتهدوا فى معرفة المراد به وتسارعوا بتنفيذه ﴿**واتقوا الله**﴾ احموا أنفسكم من عذاب الله بطاعته ﴿**إن الله سميع عليم**﴾ .

يقول رسول الله ﷺ : [**إن الله حد حدودًا فلا تعتدوها ، وفرض فرائض فلا تضيعوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وترك أشياء من غير نسيان من ربكم ولكن رحمة منه لكم فاقبلوها ،ولا تبحثوا عنها**](٢) .

والرواية الأخرى التى أخرجها الدارقطنى تبين معنى الترك الإلهى إذ تقول : [**إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودًا فلا تعتدوها وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها**](٣) .

إذن فد سكت الله ﷻ عن أشياء كثيرة ولم يبين لنا هل هى حرام أم لا ؟ . والواجب علينا بنص هذا الحديث أن نكف عن السؤال عنها والبحث فيها وأن نقبلها وهو ما يعنى أن نعتبرها مباحة ، فلا جناح علينا

---

(١) الحجرات :١.

(٢) حديث رقم ١٥٩٧ فى "ضعيف الجامع الصغير وزيادته "(الفتح الكبير) عن أبى ثعلبة .

(٣) انظر ص ٢٤ فى الجزء ٢٨ من فتح البارى بشرح صحيح البخارى، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه .



فى تناولها أو ممارستها ؛ لأن الأصل فى الأشياء الإباحة إلى أن يأتى من القرآن والسنة ما يخالف ذلك .

ويلفت الحديث الشريف أنظارنا إلى تنــزيه الله عن النسيان ؛ فــإذا كان الله ﷻ قد سكت عن أشياء وترك الحكم عليها بالتحريم ، فإنه قد فعل هذا قصدًا أى متعمدًا ولم يفعله سهوًا أو غفلة ــ تعالى الله عن ذلك علــوًا كبيرًا ــ إذن فقد أراد الله بهذا السكوت أو الترك إباحة الأشياء التى سكت عنها ومن ثم فليس من الأدب مع الله أن يتوهم العبد أنه يذكر الخــالق ﷻ بما قد نساه من أمور الشريعة، وبالتالى فالسؤال والتنقيب عن أمور تــرك الله الحكم عليها يتعارض مع حقيقة العبودية وتنزيه الله .

ولذلك قال رسول الله ﷺ : **[ما أحل الله فى كتابــه فهــو حــلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئًا]**[1] ثم تلا الآية **﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلا بِــأَمْرِ رَبِّــكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾**[2] .

قال عمر بن الخطاب "نهينا عــن التكلــف"[3] وقــال ﷺ : [أحَــرِجَ (أحظر) عليكم أن تسألوا عما لم يكن ، فإن لنا فيما كــان شــغلاً] يعنــى أنهاكم عن البحث فى أمور لم تقع ، لأننا يجب أن نشغل عقولنا بما حــدث فعلاً وأعلمنا الله بحكمه عليه من أجل أن نبادر بطاعة الله فيه .

---

(١) أخرجه البزار وصححه الحاكم من حديث أبى الدرداء ﷺ نقلاً عن فــتح البــارى ص٢٤ ــ الجزء ٢٨ .

(٢) مريم : ٦٤.

(٣) حديث رقم ٧٢٩٣، فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى .

كتاب أخلاقيات المصطفى ﷺ فى تحريم السب واللعن والفحش

السب أو الشتم هو أن تصف الشىء بما يعيبه وتنسب إليه ما يحط من قدره بين أقرانه الذين من المفترض عقلاً أو عُرفًا أو قانونًا أو دينًا أنه يساويهم وأن له نفس المكانة التى لهم ويستحق نفس القدر من الاحترام .

وهذا هو العمل الذى تحتويه أو تفضى إليه السخرية . يقول الله ﷻ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْأِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١) .

قوله ﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ يعنى لا يحتقر رجال رجالاً مثلهم ؛ فإنهم جميعاً متساوون فى الكرامة الإنسانية؛ فلا يحق لبعضكم أن يظن أنه فوق غيره من البشر، ثم يعبر عن هذا الظن الخاطئ باحتقار الغير عبر سبه أو شتمه .

وعطف النساء على الرجال فقال " وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ" رغم أن نهى الرجال يدخل فيه النساء بالتبعية بموجب أن الخطاب الإلهى متوجه لكل من آمن من الناس، وذلك للإشارة إلى أن النساء تكثر منهن السخرية؛

---

(١)الحجرات : ١١ .



أعنى أن هذه الخطيئة يكثر وقوعها من النساء . ولذلك قال رسول الله ﷺ فى موعظته للنساء "**يا معشر النساء تصدقن فإنى أريتكن أكثر أهل النار** "

فقالت واحدة منهن "وبم يا رسول الله ؟" تسأل عن السبب أو الأسباب وراء كثرة عدد النساء فى أهل النار فقال ﷺ : **[تكثرن اللعن وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن]**(١) .

والحديث الشريف يستعمل ــ هنا وفى مواضع أخرى كثيرة أيضاً ــ لفظ "اللعن" بمعنى السب أو الشتم . وبيان ذلك أن اللعن يعنى إبعاد الشىء عن رحمة الله ؛ أى الإقرار بأن الشئ الذى وقع عليه اللعن يتصف بالسوء والقبح إلى حد أنه لا يجد مكاناً فى رحمة الله التى وسعت كل شىء ، ومن ثم فإن اللعن هو أقصى وأقسى السب ، فعندما تقول لشىء "يا ملعون" أو "لعنة الله عليك" فإنك تكون قد بلغت النهاية فى سبه أو شتمه إذ تعلن بقولك هذا أنه مستحق بخبثه وبشاعته للطرد من رحمة الله الواسعة.

قوله **﴿عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ ﴾** وقوله "**عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ**" بيان أن ليس فى مقدور الإنسان أن يعلم درجات العباد عند الله ؛ لأن ذلك من علم الغيب الذى احتفظ الله به لنفسه ، وبالتالى فليس من حق

---

(١) الحديث رقم ٣٠٤ فى "فتح البارى بشرح صحيح البخارى " كتاب الحيض ــ باب ترك الحائض الصوم . وبقية الحديث :"قلن : وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله ؟ " **قال : أليس شهادة المراة مثل نصف شهادة الرجل ؟ قلن بلى قال : فذلك من نقصان عقلها . أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم قلن: بلى . قال فذلك من نقصان دينها** " ــ انظر الأحاديث ١٤٦٢ ، ١٩٥١ ، ٢٦٥٨ ، فى نفس المرجع .

أحد من البشر أن يحتقر غيره ولا أن يسبه ، لأنه لا يعلم حقيقة مقامه ولا درجته عند الله فقد يكون المُحَتَقَرُ المشتوم أعلى مقاماً وأرفع درجة عند الله من الساخر .

" **عَسَى**" ــ هنا ــ تعنى ربما ، أى تفيد الاحتمال ؛ لأن اليقين التام ، أعنى الحقيقة المطلقة لا يعلمها إلا الله ﷻ وحده والساخر من غيره يكون ــ فى الحقيقة ــ قد ادعى لنفسه علم الله الذى يعلم درجات العباد؛ فالسخرية من الناس ليست ــ إذن ــ إلا ثمرة الكبر الذى يسول للإنسان المخلوق أن يتجاوز قدره .

يقول الرسول ﷺ :"**الكبر من بَطَرَ الحق وغَمَطَ الناس**"[1]

"**بَطَرَ الحق**" : جحد الحق : فلم يذعن لمقتضى الدليل العقلى القاطع الذى لا سبيل إلى الجدال فيه.

"**وغمط الناس**" : احتقر الناس مستهيناً بحقوقهم منتهكاً حرماتهم .

هذا هو تعريف الكبر المحرم الذى يحرم صاحبه من دخول الجنة :"**لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر**" .

قيل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً .

قال ﷺ : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس"[2] .

قوله ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ يعنى ولا تؤذوا أنفسكم بألسنتكم ؛ لا تعيبوا بعضكم البعض فلا يصف بعضكم بعضاً بصفات تكرهونها. اللمز

---

(١) حديث رقم ٤٦٠٨ فى صحيح الجامع الصغير وزيادته فى (الفتح الكبير)" .

(٢) حديث رقم ٧٦٧٤ ــ المصدر السابق .



هو الإيذاء باللسان يعنى فى كلمة واحدة العيب أو السب وقال هنا "**أنفسكم**" للتنبيه على الأصل الواحد الذى خرج منه كل الناس وينتمى إليه جميع المؤمنين بموجب إيمانهم بأن البشر كلهم أبناء رجل واحد هو آدم ﷺ .

فعندما يؤذى الإنسان المؤمن أخاه بلسانه فإنه ـ فى الحقيقة ـ لا يؤذى إلا نفسه ؛ لأن إثم اللمز (الإيذاء اللسانى) راجع إليه لا محالة .

﴿وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ : ولا ينادى بعضكم بعضًا بالأسماء والصفات المكروهة، بل ينبغى للمؤمن أن ينادى أخاه بأحب الأسماء إليه . والتنابز بالألقاب المكروهة يعد ـ إذن ـ ضربًا من السباب فهو من اللمز.

وعندما يسخر المؤمنون من بعضهم ، ويسبون (يعيبون) بعضهم ، ويسمى بعضهم بعضًا بأسوأ الأسماء التى يكرهونها فإنهم ـ فى الحقيقة ـ يكونون قد ارتدوا عن الإيمان رغم احتفاظهم بظاهر الإسلام وهو ما يعنى أنهم قد صاروا منافقين **﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** [١] وما أسوأ أن يسمى الإنسان فاسقًا بعد أن كان مؤمنًا "**بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان**" فعلى من وقع فى ذلك أن يسارع بالعودة إلى الإيمان بالتوبة من السخرية من عباد الله التى أوقعته فى اللمز والتنابز بالألقاب وأخرجته من دائرة الإيمان **﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**[٢] .

---

(١)التوبة: ٦٧.

(٢)البقرة: ٢٥٤.

مستلهماً هذه الآية قال رسول الله ﷺ : "**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**"[1] . وقال ﷺ :"**المُستَبّان ما قالا فعلى البادئ منهما ، حتى يعتدى المظلوم** "[2] . وقال ﷺ :" "**المُستَبّان شيطانان ، يتهاتران ويتكاذبان**"[3] .

وقال ﷺ : [**ساب المؤمن كالمشرف على الهلكة**] [4] ؛ نعم لأنه قد خرج باطنًا من الإيمان وصار معرضًا للبقاء فى الكفر إن لم يتب كما أنبأتنا سورة الحجرات فقد صار إذن على شفا الهاوية .

لقد حرم القرآن والرسول ﷺعلى المسلمين أن يسبوا بعضهم بعضاً واعتبرت هذه الخطيئة خروجاً باطنياً عن الإيمان . قال رسول الله ﷺ :[**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه**] وتعجب الناس واستبعدوا أن يحدث هذا ؛ لأن الطبع الإنسانى السليم يأباه فقالوا متسائلين متعجبين "يا رسول الله ! كيف يلعن الرجل والديه ؟!"

قال ﷺ :[**يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه**][5]

---

(١) الحديث رقم ٦٠٤٤ فى فتح الباري بشرح صحيح البخارى" عن عبد الله بن مسعود . كما رواه مسلم وأحمد بن حنبل والترمذى والنسائى و ابن ماجة وقد رواه ابن ماجة وايضاً عن أبى هريرة وسعد والطبرانى عن عبد الله بن مغفل وعن عمرو بن النعمان بن مقرن . والدار قطنى عن جابر . ورواه الطبرانى عن ابن مسعود بلفظ "**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر وحرمة ماله كحرمة دمه** "

(٢) حديث رقم ٦٦٩٧ فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته ــ الفتح الكبير" .

(٣) حديث رقم ٦٦٩٦ فى المصدر السابق .

(٤) حديث رقم ٣٥٦٨ فى المصدر السابق .

(٥) حديث رقم ٥٩٧٣ فى فتح البارى يشرح صحيح البخارى ــ كتاب الأدب .



ولا يقتصر تحريم السب واللعن على جماعة المؤمنين المسلمين، بل إن المسلم محرم عليه أن يسب أو يلعن أهل الأديان الأخرى أو الكافرين حتى إذا أساءوا .

"دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ وكانت عنده زوجه عائشة رضى الله عنها فقالوا: "السام عليك " يوهمون أنهم يلقون السلام ، وهم يدعون على النبى ﷺ وآصحابه بالهلاك العاجل فإن السام هو الموت العاجل .

وظنت عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ لم يفطن إلى حقيقة ما قالوا وأغاظتها هذه الإساءة من هؤلاء اليهود فاندفعت ترد عليهم إساءتهم :"بل عليكم السام والذام ولعنكم الله وغضب عليكم" أو قالت :"بل عليكم السام واللعنة" فأشار إليها الرسول الكريم ﷺ أن كفى وقال لها : "**مهلاً يا عائشة عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش** "(١) .

"**فإن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله**"(٢) فقالت عائشة (رضى الله عنها) : " أو لم تسمع ما قالوا ؟!" قال ﷺ :"**أو لم تستمعى ما قلت ؟!**

---

(١) حديث رقم ٦٦٢٧ فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته ـــ الفتح الكبير".

(٢) انظر الأحاديث أرقام ٦٩٢٧ ، ٦٠٢٤ ، ٦٠٣٠ ، ٦٢٥٦ ، ٦٣٩٥ فى فتح البخارى بشرح صحيح البخارى ـــ كتاب الأدب . وفى رواية أخرى عند مسلم "**إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف**" الذام : الذم . قوله "**وعليكم**" ليس معناه الإقرار بما قالوه فإن الواو هنا ليست للعطف بل هى للاستئناف والمعنى " وإننى أدعو عليكم بمثل ما دعوتم على " ويؤيد هذا التقدير قوله "**فيستجاب لى فيهم ولا يستجاب لهم فى**" وأعتقد أن هذا النص النبوى الشريف يحل الاستشكال العويص الذى أثاره الفقهاء والمفسرون عند الترجيح بين رواية الحديث بحذف الواو "قلت : عليكم" أو بإثباتها "قلت : وعليكم" .

رددت عليهم ذلك فقد قلت "وعليكم" فيستجاب لى فيهم ولا يستجاب لهم فى"[1] .

هنا نهى رسول الله ﷺ زوجه عائشة عن أن تلعن اليهود الذى بدأوا بالإساءة وأوصاها ـ وأوصانا من بعدها ـ بالاكتفاء فى الرد على من اعتدى علينا بلسانه بأقل الألفاظ التى ليس فيها سب ولا لعن مستلهمًا قول الله ﷻ **﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[2] .**

فإذا كان من حقنا، بل من واجبنا نحو أنفسنا أن ندفع الإيذاء الواقع علينا ، وأن نرد على الإساءة التى وجهت إلينا فإن علينا أن نقوم بذلك دون أن نلوث ألسنتا بالسب واللعن .

---

(١) انظر الأحاديث أرقام ٦٩٢٧ ، ٦٢٥٢ ، ٦٣٩٥ ، ٦٠٢٤ ، ٦٠٣٠ .

(٢) فصلت :٣٤ ، الحسنة : القول والفعل الطيب الذى فيه إحسان إلى الغير .

السيئة : القول أو الفعل السيىء الذى فيه إيذاء للغير .

ومحال عقلاً وشرعًا أن يتساوى الاثنان فلا يقبل العقل ولا الدين أن يكون نفع الآخرين مثل الإضرار بهم . إذن لا شك فى أن الحسنة أحسن ؛ أى أفضل من السيئة . وعلى المؤمن بموجب الإيمان نفسه أن يتمسك فى سلوكه بما هو أحسن (أفضل) ، لأن الإيمان ـ فى جوهره ـ دعوة للارتقاء بالإنسان ليقترب فى أعماله (أفعاله وأقواله) من الخالق الرحمن الرحيم (ﷻ)فإذا اعتدى عليك ـ أيها المؤمن ـ أحد بسيئة سواء كانت قولاً أو فعلاً فبماذا ترد عليه ؟ بماذا تدفع عن نفسك الإساءة التى لحقتك ؟ وإجابة القرآن "ادفع بالتى هى أحسن" ادفع بالحسنة ادفع بالكلمة الطيبة والفعل الحسن ولا ترد على الإساءة بالمثل . وما هى ثمرة ذلك ؟

"فإذا الذى بينك وبينه عداوة" دفعته إلى إيذائك ـ قد أصبح مسالماً لك **"كأنه ولى حميم"**



ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يؤذى فيها اليهود رسـول الله ﷺ ولم تكن وصية النبى ﷺ لزوجه عائشة رضى الله عنها وصية خاصة بهـا فى حادثة فردية ؛ بل كانت وصية نبوية عامة لكل المسلمين تضبط حقهم فى التعبير دفاعاً عن أنفسهم وعن دينهم إزاء ما يتعرضون له من إيـذاء باللسان ، أعنى "اللمز" الذى ينال الإسلام والمسلمين من جانب الكـافرين فلقد اعتاد اليهود ــ عند قدوم النبـى ﷺ إلـى المدينـة ــ علـى إيذائـه والتعريض بسبه والدعاء عليه ، يلوون ألسنتهم بذلك وهم يوهمون بإلقـاء السلام عليه . مر رجل يهودى برسول الله ﷺ وهو جالس فى جمـع مـن أصحابه فقال اليهودى "السام عليك السام عليكم" ورد أصحاب النبـى ﷺ قائلين السلام عليك إذ ظنوا أنه ألقى السلام ولكن النبى ﷺ اكتفى ــ على غير عادته عند رد السلام ــ بقوله "**وعليك**" .

ولما ذهب اليهودى قال رسول الله ﷺ لأصحابه " **أتدرون ما قـال؟**" قالوا نعم . سلم علينا .

فقال ﷺ : "**لا فإنه قال السام عليكم ، ردوه علَّـى**" فـانطلق بعـض أصحاب النبى ﷺ وراء الرجل وأمسكوا به وأتوا به مسرعين إلى النبـى فقال ﷺ له " **كيف قلت؟**" يعنى وضح ما قلت .

فقال اليهودى معترفاً "قلت السام عليكم" فانـدفع بعـض أصـحاب النبى ﷺ يقولون : "يا رسول الله ألا نقتله؟" فقال ﷺ :"**لا**" وأمر بـإخلاء سبيل اليهودى الذى اعترف بتمنى الهلاك السريع للنبى وللمسلمين والدعاء عليهم . فقال أصحاب النبى ﷺ : "**فكيف نرد عليهم؟**" يقصدون حين يقولون

ذلك، قال ﷺ : **[إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم : السام عليكم فقولوا وعليك]** [١] .

وجآء رجل ــ كان معروفاً بفحشه وبذاءة لسانه ــ يستأذن فى الدخول على النبى ﷺ فقال :"**ائذنوا له**" ، وقال وهو يراه يدخل عليه "**بئس ابن العشيرة**" وسمعته زوجه عائشة رضى الله عنها فلما دخل الرجل وجلس إلى الرسول ﷺ هش له وتطلق (بش) فى وجهه وانبسط إليه وألان له الكلام، وقد قال فيه ما قال وزاد من عجبها أن رجلاً آخر كان قد أستأذن للدخول على رسول الله فقال "**نعم أخو العشيرة**" ولكنه ﷺ لم يهش له ولم ينبسط إليه كما صنع مع هذا الرجل .

فلما خرج ، قالت عائشة :"يا رسول الله حين رأيت الرجل قلت ما قلت ثم تطلقت فى وجهه وانبسطت إليه وألنت له الكلام "؟!

ووهمت عائشة رضى الله عنها إن ذلك الصنيع من رسول الله ﷺ من المداهنة التى لا تليق بالنبى ﷺ واستشكل ذلك عليها فسألت؛ فقال ﷺ "**مه**

---

(١)راجع نص الأحاديث ٦٢٥٧ ، ٦٢٥٨ ، ٦٩٢٦ ، ٦٩٢٨ ، وشرحها فى كتاب " فتح البارى بشرح صحيح البخارى" وقد ساق المؤلف فى غضون الشرح الروايات الأخرى للحديث كما أخرجت فى مراجع السنة النبوية مثل صحيح مسلم ، ومسند أحمد بن حنبل ، و صحيح ابن حبان وسنن أبى داود والطبرانى والدار قطنى والنسائى وغيرها من المراجع ومن كل ذلك استخلصنا القصة التى أوردناها آنفاً والتى أعتقد أنها تمثل السراج المنير الذى يضيىء لنا الصراط المستقيم الذى ينبغى علينا أن نسلكه إزاء الهجمة الشرسة التى يتعرض لها الإسلام فى وسائل الإعلام الغربية وآخرها التلميحات البذيئة التى أوردها بابا الفاتيكان فى إحدى محاضراته متهما الإسلام بالعدوانية والانتشار بحد السيف وغيرها من الأساطير الغربية المعتادة .



يا عائشة ! فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش"[١]

الفحش : الكلام البذئ . **التفحش** : تعمد استعمال الكلام البذئ الخارج عن حدود الأدب والإكثار منه وتصنعه خاصة إذا أريد به إضحاك الناس .

أى عائشة ! متى عهدتنى فاحشاً ؟! إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من ودعه (تركه) الناس اتقاء فحشه"[٢] يبين ﷺ بقوله أن الفحش ـ الذى يعنى بذاءة اللسان أى السب واللعن واستعمال الألفاظ الخشنة والقبيحة التى تتناول عورات الإنسان التى ينبغى للمؤمن الصادق أن يسترها ويتجنب ذكرها علامة ظاهرة على النفاق الباطن فى القلب ولذلك فإن الفاحش الذى يؤذى الناس بلسانه ينتظره أسوأ مصير فى الآخرة حيث يكون فى الدرك الأسفل من النار لأنه **"شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة"** .

وبَيَّنَ رسول الله ﷺ بفعله مع ذلك الرجل المعروف بفحشه : أنه ينبغى تجنب مواجهة الناس بعيوبهم على الملأ أمام الآخرين ؛ لأن ذلك يجرح كرامتهم ، ويدفعهم الشعور بالإهانة إلى العناد والإصرار على الخطأ ؛ فليس من الموعظة الحسنة فى شئ أن تغلظ القول لمن تريد وعظه

---

(١) الحديث رقم ٦٦٢٦ فى صحيح الجامع الصغير وزيادته فى (الفتح الكبير) ، وقد رواه مسلم . قوله "مه" يقصد النهى والتحذير فهو يقول ﷺ لها : كفى عن هذا الوهم (الظن) وانتبهى إلى الخطأ الذى وقعت فيه .

(٢) انظر الأحاديث أرقام ٦٠٣٢ ، ٦٠٥٤ ، ٦١٣١ ، فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى ـ الجزء ٢٢ ـ كتاب الأدب .

وتظهر عيوبه أمام الآخرين ؛ لأن ذلك يدفعه إلى التمسك بسلوكه المعيب . ولذلك قال الله ﷻ لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام عندما أمرهما بالذهاب إلى فرعون الملك الطاغى المتجبر "**فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**"(١) ولذلك ألان رسول الله ﷺ الكلام إلى ذلك الرجل المعروف بفحشه لعل اللين والتودد إليه ينزع الشر الكامن فى قلبه ويحثه على مراجعة نفسه والرجوع عما فيه من غلظة وبذاءة.

وليس فيما صنعه النبى ﷺ مداهنة ولا غيبة محرمة ؛ فإن المداهنة المحرمة أن تحصل على منفعة دنيوية فى مقابل ترك فرض من فروض الدين ، وفى كلمات أخرى أن تتوسل إلى اكتساب حظ من حظوظ الدنيا مثل المال أو الجاه بالتخلى عن شىء أمر الله به عباده المؤمنين وهو ما يعنى فى كلمة واحدة إرضاء الناس بإسخاط الله .

وأما الغيبة المحرمة فإنها : " أن تذكر أخاك المؤمن بما يكره من عيوبه عند غيابه منفسًا عن الغل الذى فى قلبك تجاهه متلذذاً بالسخرية منه" وليس فيما صنع الرسول ﷺ شىء من ذلك (حاشاه) فإنما أراد أن يتألف قلب هذا الفاحش من أجل أن يثبت ويزداد الإيمان فى قلبه، وتَرَفَّقَ فى موعظته؛ إذ ألان له الكلام من أجل أن يعينه على نفسه الأمارة بالسوء ؛ فالترفق بالجاهل عند تعليمه وبالفاحش عند وعظه وتجنب إظهار العيوب والإغلاظ له فى القول يعد من المداراة (التقية) المحمودة من أجل إشاعة

---

(١) طـه : ٤٤ .



السلام فى الحياة وليست من المداهنة المحرمة التى تؤدى إلى هدم أركان الدين .

ويتضح مما تقدم أن الرسول الأعظم ﷺ قد نهى عن السب واللعن والفحش مع كل الناس سواء كانوا مسلمين أو كافرين ، صالحين أو فاسدين بل إنه ﷺ قد عد مواجهة الناس بعيوبهم فى غلظة وأمام الآخرين من الفحش الذى نزه نفسه ﷺ عنه إذ قال لعائشة رضى الله عنها "**متى عهدتنى فاحشاً؟!**"

ولذلك فإنه ﷺ لم يكن يواجه الناس بأخطائهم وعيوبهم وهو يعظهم آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر ، بل كان يقول "**ما بال أقوام يقولون كذا أو يفعلون كذا**" دون أن يسميهم حتى لا يؤذيهم ويجرح كرامتهم .

وصف أنس بن مالك ﷺ ـ وهو الذى خدم النبى ﷺ طوال عشر سنوات كاملة منذ قدم النبى إلى المدينة مهاجرًا حتى توفاه الله وقد أمكنه الله ﷻ خلالها من الاطلاع على أدق تفاصيل حياة النبى ﷺ الشخصية ومعرفة خلقه العظيم عن قرب ـ وصف النبى ﷺ بقوله :**[لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ، ولا سباباً ولا لعاناً . كان يقول لأحدنا عند المعتبة : ماله ترب جبينه]**(١) .

قوله "**ترب جبينه**" يعنى ما الذى أوقعه فى هذا الخطأ فسقط على الأرض فلوث التراب جبينه؛ فهو ﷺ يقول لمن يعتب عليه ما الذى دفعك إلى الحط من قدرك وتلويث جبينك بتراب الخطأ !!" وهو ـ كما نرى ـ

(١) الحديث رقم ٦٠٣١ ، ورقم ٦٠٤٦ فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى " كتاب الأدب"

عتاب رقيق ليس فيه ذم بل هو أقرب إلى المدح؛ إذ يشعر المخطئ المعاتب بأنه كان جديرًا بتجنب الوقوع فى الخطأ .

هذا ما كان ﷺ يعاتب به من يخطئ من أصحابه !!

ووصف عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما رسول الله ﷺ "بأنه **"لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً وكان يقول : إن خياركم أحسنكم أخلاقاً"**[(١)] .

ولم ينه رسول الله ﷺ عن سب ولعن جميع الناس فقط ، بل إنه ﷺ قد نهى عن سب ولعن جميع الأشياء .

قال رسول الله ﷺ :**"لا تسبن أحدًا ، ولا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق (أو قال ولو أن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه وجهك) إن ذلك من المعروف ، و ارفع إزارك إلى نصف الساق ، فإن أبيت فإلى الكعبين وإياك وإسبال الإزار ، فإنه من المخيلة ، وإن الله لا يحب المخيلة ، وإن أمرؤ شتمك وعَيَّركَ بما يعلم فيك ، فلا تعيره بما تعلم فيه فإنما وبال ذلك عليه"**[(٢)] .

قوله **"لا تسبن أحدًا "** نهى عن سب أى إنسان .

سمع رسول الله ﷺ ــ فى بعض أسفاره ــ أحد أصحابه يلعن بعيره الذى يركبه فغضب ﷺ وقال :**[من هذا اللاعن بعيره ؟! انزل عنه فلا تصحبنا بملعون . لا تدعوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ،**

---

(١) الحديث رقم ٦٠٢٩ ، ورقم ٦٠٥٣ فى المصدر السابق .

(٢) الحديث رقم ٧٣٠٩ ، ٧٢٤٥ فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) .



ولا تدعوا على خدمكم ولا تدعوا على أموالكم لا توافقوا من الله ساعة يُسأل فيها عطاء فيستجيب لكم][1] .

قوله " **أموالكم** " يعنى الأنعام والمواشى والدواب وسائر ممتلكات الإنسان .

وقال ﷺ : **[لا تسبوا الديك ، فإنه يوقظ للصلاة]**[2] قوله "**فإنه يوقظ للصلاة**" توجيه إلى رؤية جانب الخير فى الأشياء التى قد تبدو مزعجة أو تسبب ألماً للإنسان ولذلك فعندما زار النبى ﷺ أم العلاء رضى الله عنها فى مرضها ودخل عليها فوجدها تسب الحمى التى أصابتها فبشرها وقال لها :"**لا تسبى الحمى ، فإنها تنقى الذنوب كما تنقى النار خبث الحديد**"[3] أو قال "**فإنها تذهب خطايا بنى آدم كما يذهب الكير خبث الحديد**"[4] .

ونهى ﷺ عن سب الريح رغم ما تسببه من متاعب وما قد تحدثه من دمار فقال ﷺ : "**لا تسبوا الريح ؛ فإنها من روح الله ، تأتى بالرحمة والعذاب ولكن سلوا الله من خيرها وتعوذوا بالله من شرها**"[5] "**فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها**

---

(١) الأحاديث أرقام ١٥٠٠ ، ٦٥٨٢ ، ٧٢٦٧ فى المصدر السابق .

(٢)حديث رقم ٧٣١٤ فى المصدر السابق .

(٣)حديث رقم ٧٣٢٢ فى المصدر السابق .

(٤)حديث رقم ٧٣٢١ فى المصدر السابق .

(٥)الحديث رقم ٧٣١٦ فى المصدر السابق .

وخير ما أمرت به وخير ما أمرت (أرسلت) به ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت (أرسلت) به"[١] .

ونهى ﷺ عن سب الأموات أيًا كان موقفهم الدينى فى الدنيا ؛ لأن الإنسان لا يعلم مصيرهم عند الله . يقول ﷺ : **[لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء"[٢] "فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا]**[٣]

بل إنه ﷺ قد نهى عن سب الشيطان فقال : **[لا تسبوا الشيطان وتعوذوا بالله من شره]**[٤]

لأن سب الشيطان لن يعود على الإنسان بأى فائدة، بل إن سب الشيطان يعد علامة على ضعف الإيمان ؛ إذ لو آمن الإنسان ــ حقًا ــ بأن الشيطان عدو مبين له ــ كما يقول القرآن ــ فإن واجب الإنسان نحو نفسه يقتضيه العمل على حماية نفسه من شر هذا العدو المبين والسبيل الوحيد إلى ذلك هو الاستعاذة بالله من ذلك العدو الذى لا نراه ، أما سب الشيطان فإنه إما يعبر عن قلة الإيمان بما يقول القرآن أو عن كبرياء الإنسان الباطلة وثقته الزائفة الشديدة فى نفسه التى تسول له أنه قد صار فى مأمن من الشيطان !!

بل إن القرآن العظيم قد نهى المؤمنين عن سب الأصنام التى يعبدها المشركون الوثنيون ؛ لأن ذلك سيدفع الوثنيين على سبيل الانتقام إلى سب

---

(١)الحديثان رقم ٧٣١٥ ، ورقم ٧٣١٧ فى المصدر السابق .
(٢)الحديث رقم ٧٣١٢ فى المصدر السابق .
(٣)الحديث رقم ٧٣١١ فى المصدر السابق .
(٤)الحديث رقم ٧٣١٨ فى المصدر السابق .



الله الذى يعبده المؤمنون . يقول الله ﷻ ﴿ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١) .

إن السباب ليس من وسائل الدعوة إلى الدين ؛ فقد حدد الله ﷻ للمسلمين المؤمنين به وسائل الدعوة إلى الإسلام؛ فقال لرسوله الكريم ﷺ ولأمته من بعده ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٢) .

﴿سبيل ربك﴾ : الإسلام ؛ لأنه الطريق الموصل إلى الله . إنه الصراط المستقيم الذى يسهل السير عليه ويفضى بسالكه إلى معرفة الله .

يحدد ﷻ ثلاث وسائل للدعوة إلى الإسلام .

(١) **الحكمة** : هى الطريقة المثلى فى ممارسة الحياة على النحو الذى يرضى الله ﷻ وفى كلمة واحدة هى "السُنَّة" التى تعنى طريقة الرسول ﷺ فى طاعة الله وتناول الأشياء . وقد بين القرآن هذا المعنى فى قوله خطاباً لنساء النبى ﷺ : ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيرًا﴾(٣) .

"مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ " هى آيات القرآن التى كان يتلوها النبى ﷺ فى حجرات نسائه عند الصلاة وعند تعليمه أصحابه .

---

(١)الأنعام :١٠٨ .

(٢)النحل:١٢٥.

(٣)الأحزاب : ٣٤ .

"**والحكمة**" هى أقوال الرسول ﷺ التى كان يتلوها على أصحابه ليعلمهم بها شريعة الله ويبين لهم الطريقة المثلى فى طاعة الله وممارسة الحياة .

إذن **الحكمة** هى "السُنَّة" وهى أول وأهم وسيلة للدعوة إلى الإسلام وذلك بأن يلتزم بها المسلمون فى حياتهم فيكونون ـ بفضلها ـ نموذجًا يحب الآخرون أن يتمثلوا بهم ؛ لأنهم يجدونهم محققين للقيم الإنسانية "العليا" التى أجمع البشر عبر التاريخ على احترامها وتقديسها وأقروا بأنها القيم التى يجب أن تعلو فى حياة الناس .

(٢) الموعظة الحسنة : هى الموعظة التى تحسن فى نظر الموعوظ فيتقبلها بقبول حسن يحثه على الأخذ بها، ولا يمكن أن تكون كذلك إلا إذا راعى الواعظ أحوال من يعظه وعلم ـ عن قرب ـ صفاته وظروف حياته والمشاكل التى يواجهها فيختار أنسب الوسائل والكلمات فى وعظه .

وإلا إذا أخلص الواعظ فى نيته هداية الناس إلى طريق الله ؛ أى تجرد من الأغراض الدنيوية أو المنافع الخاصة التى يمكن أن يحصل عليها عند قيامه بالدعوة وجعل غايته الوحيدة هى بيان حقائق الإسلام (سبيل الله) وتحبيب الناس فى الدخول فيه، ولا يمكن أن يتم له شىء من ذلك إلا إذا عرف الواعظ كيف يصل إلى قلوب المدعوين ويؤثر فيهم التأثير الإيجابى الذى يقنعهم بحقائق الإسلام ويحثهم من داخل أنفسهم على الدخول فيه ولا يتسنى له ذلك إلا ـ كما قلنا ـ بمعرفة صحيحة دقيقة بأحوالهم وقدرة على اختيار الطريقة المناسبة لكل واحد من المدعوين .



(٣) **الجدال بالتى هى أحسن** : قوله تعالى **﴿التى هى أحسن﴾** الكلمة الطيبة التى لا ترد على الإساءة بمثلها ؛ بل ترد على السيئة بالحسنة كما قال الله ﷻ **﴿ولا تستوى الحسنة والسيئة ادفع بالتى هى أحسن﴾** .

"**الجدال**" هو مقارعة الحجج وموازنة الأدلة المتناقضة عند الخلاف فى قضية من قضايا العقل والدين، ولا شك فى أن الخلاف فى الرأى ، خاصة فى القضايا الدينية ينشر جوًا من النفور ويغرى بالإساءة إلى الخصوم رغبة فى الغلبة عليهم عبر السخرية منهم .

هنا سيتحول الجدال من أفق الخلاف فى الرأى بحثًا عن الحقيقة التى يقبلها العقل إلى ميدان الصراع الشخصى أو الطائفى أو القومى بحثًا عن القوة التى تُمكّن من إخضاع الآخرين، أعنى بحثًا عن السُلطة التى تُكْرِه الآخرين على إظهار الخضوع . ويتحول الخلاف الفكرى إلى صراع شخصى أو سياسى وقتال دموى . وهنا بالضبط ينزل التوجيه الإلهى فى القرآن بالنهى عن الرد على الإساءة بمثلها والأمر بالدفع بالتى هى أحسن إلى المسئ حتى لا يتحول الخلاف الفكرى فى الرأى إلى صراع عنيف من أجل السلطة .

وأعتقد أن آية سورة الأنعام **﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾** هى الأساس المتين لبناء حوار حقيقى بين الثقافات ؛ حوار يقوم على احترام عقول البشر وحقهم فى الاختلاف . ولذلك ختم الله ﷻ الآية بقوله **﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** يعنى كما زينا لكم – معشر المسلمين – الإيمان بالقرآن فى قلوبكم فصرتم بفضل الله عليكم مؤمنين

موحدين ، فإننا قد زينا لكل أمة من الأمم الأخرى عقيدتها وشريعتها فلا ترضى أبدًا عما اختارت بديلاً . ولذلك اختلف البشر إلى أمم شتى وليست الدنيا مجال إظهار الحقيقة كاملة وحسم النزاع فى قضايا الخلاف بين البشر ، لأنها دار ابتلاء (امتحان) الإيمان فى القلوب؛ وهو ما يقتضى بقاء الحقيقة الكاملة فى الخفاء (الغيب) فلا يظهر منها إلاَّ القدر الذى يلزم لإجراء الامتحان .

وختم آية سورة النحل بقوله ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ يعنى أنه ﷺ أكثر علمًا منك بالذين رفضوا الدعوة وتاهوا عن سبيل الله وهو ﷺ أكثر علمًا منك بالذين استجابوا للدعوة وساروا على الصراط المستقيم فلا تتوهم أن الله ﷺ غافل عن عباده لا يعلم من كفر منهم وعصى ومن آمن وأطاع ؛ فعلمه واسع محيط بكل شىء وقد أعطى الإنسان حرية الاختيار بين الكفر والإيمان وهو يعلم أن ذلك سيؤدى حتماً إلى ضلال كثير من العباد ، من أجل إقامة حجة عدله عليهم فلا تتوهم ــ أيها الداعى إلى الإسلام ــ أنك قادر على إدخال جميع الناس فى دين الله ، فإن ذلك هو المحال المناقض لإرادة الله التى قضت باختلاف البشر بين الكفر والإيمان فلا تسب الأصنام ولا تلعن الكافرين ، لأن ذلك لن يجدى فتيلاً فى نشر الإسلام ؛ عليك فقط أن تؤدى واجبك فى الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن .

وعندما يقوم أحد الرسامين فى صحيفة دنماركية بتصوير الرسول ﷺ فى هيئة إرهابى يحمل القنابل فى عمامته ليروع الآمنين ويدمر منتجات الحضارة، فإن ذلك لا يعد من حرية الرأى التى ينبغى أن تقف عند حدود



الحقوق والحرمات الإنسانية للغير والتى يأتى الدين على رأسها، وإنما يعد ذلك التعبير من السباب الذى ينبغى للإنسان المتحضر أن ينزه نفسه عن الوقوع فيه .

وكذلك عندما يقول بابا الفاتيكان على لسان إمبراطور بيزنطى إن رسول الإسلام لم يأت إلا بما هو سئ (شر) وغير إنسانى ، فإن ذلك القول البذئ ليس من حرية الرأى فى شئ ومحال أن يكون دعوة للحوار بين الأديان أو الثقافات المختلفة ، وإنما هو سباب خارج عن حدود الأدب ودعوة للصراع وإشعال الفتن والحروب وعلينا أن نتمثل بحكمة (سنة) رسول الله ﷺ عند معالجة هذه الأمور .

وأخيراً نقول لقد نهانا رسول الله ﷺ عن سب الدهر (الزمن) فقال "**لا تسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر**"(١) وقال ﷺ معبرًا عن الله ﷻ فى الحديث القدسى :"**يسب بنو آدم الدهر ، وأنا الدهر بيدى الليل والنهار** "(٢)

---

(١) الحديث رقم ٧٣١٣ فى المصدر السابق .

(٢)الحديث رقم ٦١٨١ فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى .

كتاب أخلاقيات المصطفى ﷺ
فى تحريم الإرهاب والعنف

نقصد بالإرهاب تخويف الناس من أجل إجبارهم (إكـراههم) على اتخاذ موقف لا يرضونه بل يوافق إرادة من يقوم بإرهابهم ، أوفى كلمات آخرى الإرهاب هو القيام بعمل من شأنه تهديد الناس بغية إكراههم على إعلان آراء لا يقتنعون بها والقيام بأعمال لا يرضونها .

ونعنى بالعنف إيذاء الناس وانتهاك حرماتهم ــ التى كفلت الشريعة حفظها ــ فى سبيل تحقيق الأهداف الخاصة بمن يقوم بالعنف . ومن الواضح أن الإرهاب والعنف وجهان لخطيئة واحدة هى الإكراه ؛ الذى يعنى اغتصاب حرية الإنسان وحقه فى الاختيار .

ذلك الحق الذى منحه الله ﷻ لآدم وبنيه واختصهم بـه دون سائر خلقه، وعليه يقوم حسابهم عند الله يوم القيامة ، ومن أجله خلقت الجنة والنار وكانت السماوات والأرض .

ولقد عَدَّ القرآن الكريم "الأمن" أعظم النعم التى امتن بها الخالق ﷻ على البشر بعد الطعام الذى يضمن بقاء الحياة فى الأجساد .يقول الله ﷻ فى سياق وصف نعمه على قريش بفضل الكعبة البيت الحرام الذى يقيمون حوله ويستمدون منه "سر" حياتهم :



﴿ لإيلاف قُرَيْشٍ * إيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾[1] .

قوله ﴿أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ ﴾ يعنى أطعمهم بعد جوع ، أى بعد أن كانوا جائعين لا يملكون فى أرضهم وسائل إنتاج الطعام، فإن مكة أرض صخرية لا ينبت فيها الزرع أو كما قال الله على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾[2] يمتن الله عليهم بإطعامهم دون أن يملكوا وسائل أو أسباب إنتاج الطعام .

قوله ﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ يعنى وهبهم الأمن بعد أن كانوا خائفين لا يملكون وسائل حماية أنفسهم من أعدائهم . فقد كانوا ضعافاً ليس عندهم من السلاح ووسائل الدفاع ما يمكنهم من صد الأخطار التى تتهددهم .

فبفضل حرمة البيت الحرام نالوا الطعام الذى يأتيهم مع وفود الحجيج وحصلوا على الأمن بموجب شريعة الله التى تحرم القتال عند الكعبة وتمنع استعمال السلاح فى حرمها المقدس .

لننظر ملياً كيف جعل توفير الأمن نعمة عظمى تجاور نعمة توفير الطعام وكيف ربط بين الاثنين ؛ الطعام والأمن ليقول بهذا النص إنه لا سبيل لبقاء الحياة الإنسانية دون توفير الأمن الذى يعد الشرط الجوهرى الأول لاستقرار ونمو المجتمعات البشرية . وإذا كان الأمن هو أعظم نعمة فى هذه الحياة الدنيا بعد الحصول على الطعام أو كما قال رسول الله ﷺ : **[من أصبح منكم آمناً فى سربه ، معافى فى جسده ، عنده قوت يومه،**

---

(1) قريش : ١-٤.

(2) إبراهيم : ٣٧ .

فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها][1] فإن الإرهاب ـ الذى يعنى نزع الأمن وإشاعة الخوف ـ يعد هو الجناية العظمى التى يرتكبها الإنسان فى حق أخوته من البشر .

يقول رسول الله ﷺ : **[من حمل علينا السلاح فليس منا]**[2] يعنى من أعلن عن قتال المسلمين فهو بالقطع ليس واحداً منهم بل هو كافر؛ لأن رسول الله ﷺ قال: **[سباب المسلم فسوق وقتاله كفر]** [3] .

إذن ، فحمل السلاح وإعلان الحرب على المسلمين، يعد بمثابة إعلان عن "كفر" من حمل السلاح وأراد قتل المسلمين وهو الحكم الشرعى الذى أكده رسول الله ﷺ فى خطبة حجة الوداع حيث قال : **[لا ترتدوا (لا ترجعوا) بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض]** [4] .

وحامل السلاح المريد قَتْلَ المسلمين يُعَدُّ ـ إذن ـ من الكافرين المحاربين الذين يجب شرعاً قتالهم ، فإنه بحمل السلاح والتهديد به يصبح مهدر الدم مباحاً قتله .

مجرد التهديد بالقتل بشهر السلاح ـ أعنى مجرد استعمال السلاح على سبيل التهديد أى من أجل الإرهاب (التخويف) ـ يعد سبباً فى إهدار

---

(١) الحديث رقم ٦٠٤٢ فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)

(٢) الحديث رقم ٧٠٧٠ ، ٧٠٧١ فى "فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، والحديث رقم ٦٢١٧ فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) .

(٣) الحديث رقم ٧٠٧٦ فى فتح البارى .

(٤) انظر على سبيل المثال الأحاديث أرقام ٧٠٧٧ ، ٧٠٧٨ ، ٧٠٧٩ ، ٧٠٨٠ فى المصدر السابق .



دم من يرتكب هذه الخطيئة . قال رسول الله ﷺ : **[من سل علينا السيف ، فليس منا]**[1] . وقال : **[من شهر سيفه ، ثم وضعه فدمه هدر]**[2] .

مجرد شهر السيف ؛ أى التهديد بالسلاح دون استعماله فى القتل فعلاً يهدر دم من يقترف خطيئة إرهاب الناس.

ولا شك فى أن من يقومون بما نسميه اليوم بالعمليات الإرهابية لا ينجزون ذلك إلا عبر وضع خطط "سرية" وتدبيرات خفية تقوم على خداع الناس وغشهم، وهو ما حرمه رسول الله ﷺ ؛ ولذلك جاءت فى إحدى روايات الحديث السابق ذكره **[من حمل علينا السلاح فليس منا ، ومن غشنا فليس منا]**[3] .

إن العمليات الإرهابية تقوم على المكر والخداع ، أى على إخفاء الحقيقة وإضلال الناس بلفت أنظارهم بعيداً عن التدبيرات الخفية التى تم إعدادها فى الظلام، وقال رسول الله ﷺ متوعداً من يقوم بهذا بأن مصيره إلى جهنم: **[من غشنا فليس منا، والمكر والخداع فى النار]**[4].

إن حمل السلاح والقتال لا يجوز شرعاً إلا ضد الكافرين المحاربين للإسلام، وهو ما يعنى فقط إباحة حمل السلاح والقتال للدفاع عن المسلمين ورد ظلم المعتدين عليهم . وفى هذه الحال فقط يجوز المكر والخداع، لأن

---

(١) الحديث رقم ٦٢٩٩ فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) .

(٢) الحديث رقم ٦٣٢٢ .

(٣) الحديث رقم ٦٢١٨ فى المصدر السابق، والحديث رقم ٦٤٠٦ ، ٦٤٠٧ .

(٤) الحديث رقم ٦٤٠٨ فى المصدر السابق .

[الحرب خدعه][1] أما حمل السلاح ضد المسلمين ، أو ضد المسالمين والمعاهدين من الكافرين فأمر تكفلت نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ببيان تحريمه ولا مجال ــ هنا ــ للتفصيل، ويكفى أن نذكر قول رسول الله ﷺ : **[ومن خرج على أمتى يضرب برها وفاجرها ، ولا يتحاشى من مؤمنها ، ولا يفى لذى عهدة عهده ، فليس منى ولست منه]**[2] .

ولا شك فى أن العمليات الإرهابية العنيفة بموجب طبيعتها "السرية" سوف تؤدى ــ لا محالة ــ إلى قتل وإصابة من لا ذنب لهم حتى من وجهة نظر القائمين بالعمليات، ولن يفرق الدمار الناتج عنها بين البر والفاجر المحارب ، لأن قوة التدمير عمياء لا تستطيع التمييز بين الناس ولاعبرة ــ هنا ــ بالشعارات البراقة المرفوعة أو الغايات النبيلة المدعاة ، لأن الشريعة الإسلامية لا تقبل دعوى أن "الغاية تبرر الوسيلة" بل ينبغى أن تكون الوسيلة مشروعة (مقبولة بمعايير الشريعة) للوصول إلى الغاية المشروعة .

وإذا كان من المقبول ــ شرعاً وعقلاً ــ حدوث بعض الأذى لمن لا ذنب له فى العمليات العسكرية التى تجرى فى الحرب المشروعة مثل قتل وإصابة الأطفال والنساء والمدنيين ، مما لا يمكن تجنبه ، فإن من غير المقبول ــ لا شرعاً ولا عقلاً ــ إحداث مثل هذا الأذى فى الأعمال الإرهابية التى تبتغى إكراه الناس على ما لا يرضون من الأقوال والأفعال.

---

(١) الحديث رقم ٣١٧٦ فى المصدر السابق .

(٢) جزء من الحديث الشريف الصحيح رقم ٦٢٢٧ فى المصدر السابق .



ولقد حرص رسول الله ﷺ على توفير الأمن وإزالة كل أسباب التخويف فى المجتمع المسلم أشد ما يكون الحرص فقال : **[من أشار إلى أخيه بحديدة ، فإن الملائكة تلعنه ، وإن كان أخاه لأبيه وأمه]**(١)

يعنى لا يمكن أن تكون صلة الدم القريبة جداً مثل صلة الأخوين الشقيقين والتى من شأنها أن تبيح بعض التجاوزات فى التعامل بين الأقرباء، لا يمكن أن تبيح أبداً أن يرفع الرجل حديدة فى وجه أخيه على سبيل التهديد فإذا فعل هذا فإن الملائكة تلعنه .

وقال ﷺ : **[لا يُشر أحدكم على أخيه بالسلاح ؛ فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزغ فى يده فيقع فى حفرة من النار]**(٢) عندما يقتل أخاه.

وعندما مر رجل فى مسجد رسول الله ﷺ بسهام قد بدا نصولها (نصالها) فحذره ﷺ قائلاً : **[أمسك بنصالها]** .

ثم قال ﷺ : **[إذا مر أحدكم فى مسجدنا ، أو فى سوقنا ومعه نبل فليقبض بكفه على نصالها أن يصيب أحداً من المسلمين منها شىء]**(٣) .

وقال : **[المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم]**(٤) .

لننظر الآن ونتأمل ملياً كيف عَرَّفَ رسول الله ﷺ الإيمان تعريفاً عملياً سلوكياً مشهوداً وهو حفظ حقوق الناس واحترام حرماتهم . فإذا كان

---

(١) الحديث رقم ٦٠٣٤ فى المصدر السابق .

(٢) الحديث رقم ٧٠٧٢ فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى .

(٣) أنظر الأحاديث رقم ٧٠٧٣ ، ٧٠٧٤ ، ٧٠٧٥ ، فى المصدر السابق .

(٤) الحديث رقم ٦٧١٠ فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) .

مضمون الإيمان هو تصديق القلب بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، كما قال النبى ﷺ فى إجابته عن سؤال جبريل عليه السلام "**ما الإيمان؟**" فى الحديث النبوى المشهور ، فإن النبى ﷺ بين لنا ــ هنا ــ ثمرة ذلك الإيمان وهى تجنب انتهاك حقوق الناس وحرماتهم فإن **[المؤمن من أمنه الناس على دمائهم ، أى أنفسهم ، وعلى أموالهم أى ممتلكاتهم]** . وبموجب هذا التعريف النبوى للإيمان يصبح المؤمن هو الإنسان الذى يشيع الأمن فى الناس ويحفظ حقوقهم ويحترم حرماتهم بحيث يصبح الناس فى صحبته وجواره آمنين على أنفسهم وعلى ممتلكاتهم .

لننظر كيف قال ــ هنا ــ **[الناس]** ولم يقل "المؤمن من أمنه المؤمنون على دمائهم أو أنفسهم وأموالهم" بل قال **[من أمنه الناس]** يعنى جميع البشر ، مؤمنهم وكافرهم على حد سواء ولا يستثنى منهم إلا المعتدى الذى ينتهك حرمات المسلمين فذلك الذى لا أمن له على نفسه أو ماله جزاء وفاقاً لاعتدائه.

قال الرسول ﷺ : **[والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن]** وفزع أصحاب النبى ﷺ من هذا القسم المتكرر الذى يتوعد بسوء المصير والحرمان من دخول الجنة .

فقالوا : "من يا رسول الله ؟" من هذا المحروم من رحمة الله ؟.



قال ﷺ : **[الذى لا يأمن جاره بوائقه]**[1] .

وقال ﷺ : **[ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه]**[2] .

فهذه وصية من رسول السماء بالإحسان إلى كل من على الأرض من بشر، وفى الحديث تلويح إلى حقيقة أن الناس جميعاً أبناء رجل واحد هو آدم عليه السلام . ومن تلك القرابة البعيدة ينبعث الحق فى الميراث .

ولقد أوصى رسول الله ﷺ أصحابه بالرفق، ونهاهم عن العنف فقال : **[من أعطى حظه من الرفق ، فقد أعطى حظه من الخير ، ومن حرم حظه من الرفق ، فقد حرم حظه من الخير]**[3] .

أو قال ﷺ : **[من يحرم الرفق يحرم الخير كله]**[4] .

وقد سبق أن ذكرنا أن رسول الله ﷺ قال لزوجه عائشة رضى الله عنها عندما لعنت بعض اليهود الذين قالوا لرسول الله ﷺ السام عليك يدعون عليه بالهلاك السريع وهم يوهمونه بإلقاء السلام فقال ﷺ لها: **[إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف]**.

---

(١) الحديث رقم ٦٠١٦ فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى ــ كتاب الأدب .

وقد ورد فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) تحت رقم ٧١٠٢ .
وجاآء فى رواية أخرى عن أبى هريرة بلفظ :**[لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه]** .
تحت رقم ٧٦٧٥ .

(٢) الحديثان رقم ٦٠١٤ ورقم ٦٠١٥ فى المصدر السابق .

(٣) الحديث رقم ٦٠٥٥ فى "صحيح الجامع" الصغير وزيادته (الفتح الكبير) .

(٤) الحديث رقم ٦٦٠٦ فى المصدر السابق .

وقال ﷺ لها [عليك بالرفق، إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه ولا يُنزع من شىء إلا شانه وإياك والعنف والفحش][1]

وأعتقد أن هذه الوصية المحمدية هى خير ما ينصح به كل صاحب رأى إذا أراد لرأيه القبول و الاحترام عند الناس ، ولا أعتقد أننا فى حاجة ـ بعد كل ما قدمنا ـ إلى القول بأن الإسلام يحرم تحريماً قاطعاً لا شك فيه كل مظاهر الإرهاب والعنف التى تتخفى وراء شعار حرية الرأى والحق فى التعبير، وأن شريعته السمحة تنكر أشد الإنكار ما يصاحب بعض مظاهر التعبير عن الرأى من إيذاء للناس وتدمير للممتلكات الخاصة والعامة كما يحدث كثيراً فى المظاهرات والاعتصامات وغيرها من مظاهر الاحتجاج على بعض الأوضاع السياسية أو الاجتماعية .

(١) الحديثان رقم ٤٠٤١ ، ٤٠٤٢ فى المصدر السابق .



محتويات الكتاب

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر



يسر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية أن يقدم للقارئ المسلم مجلة «منبر الإسلام» فى ثوبها الجديد تفتح آفاقها على كل جديد ومفيد.. تقدم الفكر المستنير الذى يبنى الشخصية المسلمة.. تخاطب الروح والعقل بموضوعاتها المتنوعة وهديتها مجلة الفردوس «مجلة الطفل المسلم» التى تحمل تطلعات الجيل الجديد.

كما يسر المجلس أن يزود المكتبة الإسلامية فى جميع أنحاء العالم العربى والإسلامى بإصداراته المتنوعة من أمهات كتب التراث الإسلامى والموسوعات المتخصصة بالإضافة إلى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم باللغة العربية واللغات الأجنبية: «إنجليزية - فرنسية - ألمانية - روسية - إسبانية - إندونيسية» وغيرها من مؤلفات كبار العلماء القدامى وكبار المحققين فى

الاشتراكات: يخاطب بشأنها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ٩ شارع النباتات - جاردن سيتى
قيمة الاشتراك السنوية (١٢ عددا)
أولا: داخل مصر (٣٠ جنيها مصريا).
ثانيا: خارج مصر كالآتى: دول عربية وأفريقيا (٩ دولارا أمريكيا) دول أوروبية (١١ دولارا أمريكيا)، دول أمريكا وكندا وآسيا (١٤ دولارا أمريكيا)، أمريكا الجنوبية واستراليا: (٢٢ دولارا أمريكيا).

رئيس مجلس الإدارة
أ.د/ محمود حمدى زقزوق

رئيس التحرير
أ.د/ محمد الشحات الجندى

القاهرة - ٩ شارع النباتات - جاردن سيتى

Website : WWW.islamic- Council. org- WWW.islamic- Council. com
E-mail : Islamic_Council _ eg@yahoo.com

الثمن ١٠٠ قرش

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

